Bibliotheca Alexandrina
0180434

هدية مجلة «الكشاف» ١٩٢٧

مهاتما غاندي

تأليف

رومن رولان

٤٩١٩١

ترجمة

عمر فاخوري

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

مطبعة وزنكوغراف طبارة في بيروت — سوريا

مهاتما غاندي

تأليف

رومن رولان

ترجمة

عمر فاخوري

مطبعة وزنكوغراف طبارة في بيروت — سوريا

حقوق الطبع محفوظة للمعرب

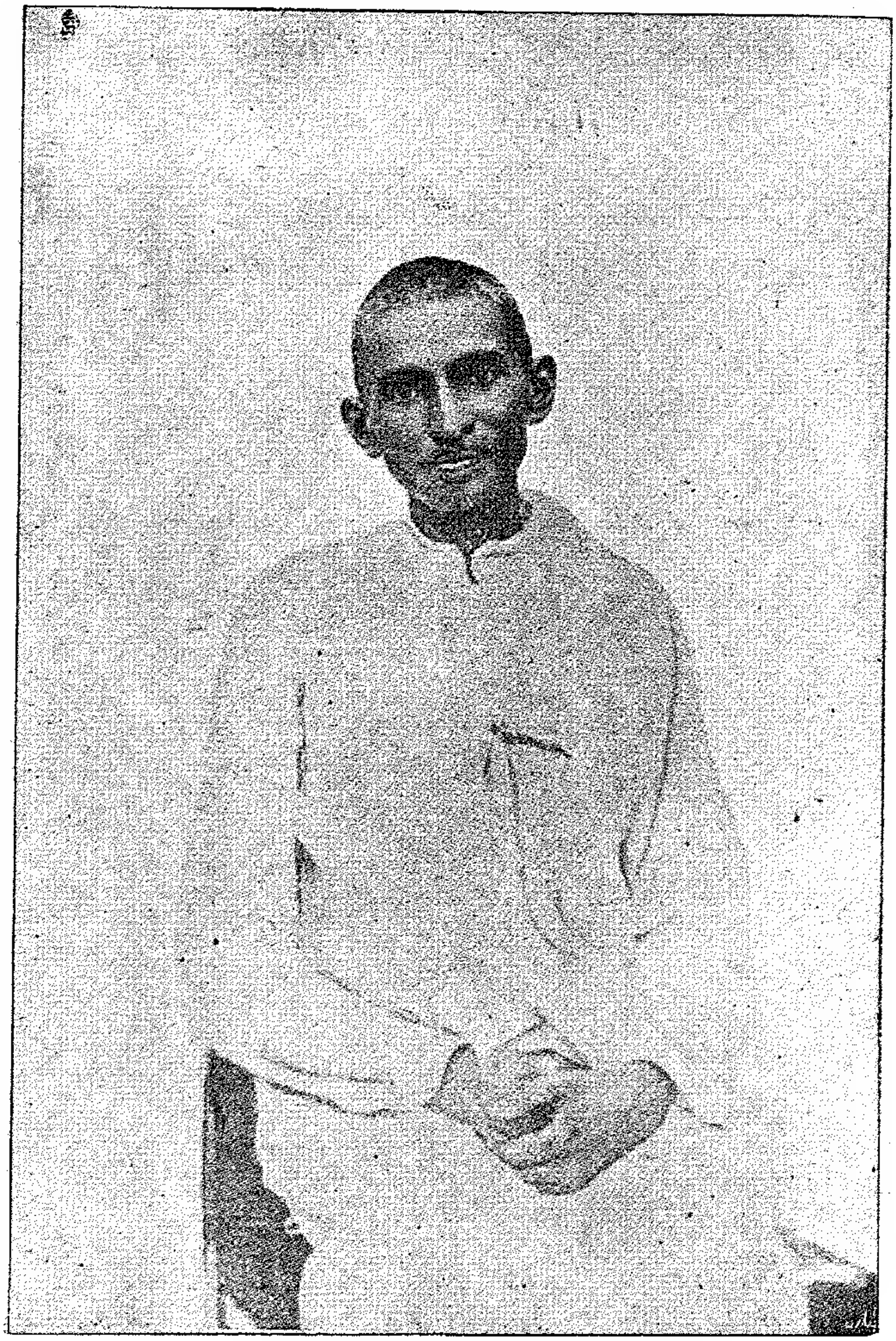

من اولئك « الاروبيين الاخيار الذين اطلقوا نفوسهم من رق التعصب القومي وجعلوها خالصة لخدمة الانسانية جمعاء – تلك الاقلية المضطهدة المؤلفة من اناس وطنهم الدنيا باسرها، الذين يرفعهم تاغور الى مقام السانياسين ، لانهم حققوا في انفسهم الوحدة الانسانية [1] » – رومن رولّلان مؤلف هذا الكتاب . فان تصانيفه جميعاً دعوة حارّة الى عناصر الخير في البشر، وحياته برمتها جهاد صادق لاعلاء كلمة الروح في هذا العالم المادي البهيمي .

وهو من كبار كتّاب الفرنسيس بل العالم ، تُرجمت تآليفه في اغلب اللغات الحية ، وأُنعم عليه بجائزة « نوبل » للادب عن سنة ١٩١٥ « تنويهاً بما في كتاباته من روحانية سامية ، وبما في وصفه مختلف نماذج البشر من صدق اللهجة وحنو العاطفة » .

---

(١) انظر ص ٩٤

واشهر كتب رومن روللان قصة « جان كريستوف » في اربع مجلدات ضخمة [1] ، ولاجلها منحته الاكادمية الفرنسية عام ١٩١٣ « جائزة الادب الكبرى » . قال المؤرخ ارنست لافيس ، عضو الاكادمية ، محبذاً هذا الاختيار : « ان مزية ذلك الكتاب عطفٌ لا يملُّ ، على مظاهر الحياة جميعاً ، وهي مزية كل تآليف رومن روللان المعجبة ، الغنية بالافكار والعواطف والصور ، المحسنة لان صاحبها ملأها حباً وحناناً . »

ويقول الاسوجي سفن سودرمان : « ان مؤلف (جان كريستوف) لمن اجلّ كتّاب هذا العصر . فهو مفكر قادر وشاعر مطبوع ، انزله كتابه منزلةً رفيعة في الادب العالمي . »

ومنذ بضعة اشهر اصدرت مجلة « Europe » جزءً ممتازاً موضوعه «رومن روللان» اشترك فيه كثير من كتاب الفرنسيس وسائر الامم ، فوفوا هذا الاديب الكبير حقه من الثناء ، وتآليفه حقها من الدرس .

وآخر ما ألّفه رومن روللان سيرة مهاتما غاندي التي نتقدم بها الى الناطقين بالضاد ، راجين ان يتقبلوها قبولاً حسناً .

---

(١) ترجمت في اللغات الانكليزية والالمانية والايطالية والاسبانية والبولونية والهولاندية والدنمركية

مهاتما غاندى

الروح الكبرى مهاتما . .[1]
الانسان الذي اتحد بالموجود الاعظم

١

عينان سوداوان مطمئنتان . رجل قصير القامة نحيل ، رقيق الوجه ، ذو اذنين كبيرتين منفرجتين . على رأسه قلنسوة بيضاء ، مرتد قماشاً خشناً ابيض ، حافي القدم . طعامه الارز والفاكهة ولا يشرب إلاّ ماء . لايضطجع على فراش وينام قليلاً.

---

(١) هذا هو معنى الاسم الذي اطلقه الشعب الهندي على غاندي . ماها : كبيرة – أتما : نفس . واللفظ وارد في الأوبانشادا دلالة على الموجود الاسمى وعلى الذين يتحدون به بقربى المعرفة والمحبة :

« هو الواحد المنير خالق كل شيء ، المهاتما
المكين في قلوب الناس
الدالّ عليه القلبُ والعقل والوجدان
من عرفه فهو من الخالدين . »

هذه الآية الجميلة تمثل بها تاغور لما زار في دسمبر سنة ١٩٢٢ (الأشرم) احبّ خلوات غاندي الى نفسه .

لا يفتأ يعمل ، كمن لا يحسب لبدنه حساباً . لا يأخذ بصرك منه لاول وهلة إلاّ مظهر صبرٍ طويل وحب عظيم . ولقــد رآه پرصن عام ١٩١٣ في افريقية الجنوبية فذهب فكره الى القديس فرانسوا الأسيزي . . هو ساذج كالطفل [1] لطيف لين العريكة حتى مع خصومه [2] . اما صدقه واخلاصه فبرّآن من كل سوء [3] . ينظر الى ذاته بتواضع ، وهو شديد المحاسبة لها حتى انه احياناً يقع في الحيرة ويقول : « اخطأت » ولا يكتم هفواته قط . لا يصالح ولا يحابي ولا يلجأ الى خِدَع الساسة وحيلهم . يتحاشى التأثير بالاساليب الخطابية بل لا يخطر له ذلك ببال [4] . يكره تظاهرات العامة بتمجيد شخصه وهي تظاهرات كادت تودي

---

(١) يزيد س . ف . اندريوس قوله : « يضحك كالطفل ويعبد الاطفال » .

(٢) « قلّ بين الناس من يستطيع مقاومة السحر المنبعث من شخصيته . فأن انسه ولطفه يجعلان الدّ خصومه متهيبين متأدبين . » جوزف ج . دوك

(٣) كل حَيْدٍ عن الحقيقة ، وإن جــاء عرضاً ، فلا يطيق احتماله . » س . ف . اندريوس

(٤) « ليس غاندى خطيباً مستشيطاً هائجاً . فهو يمضي في خطبه ببطء وسكينة ، ويغلب عليه مخاطبة الافهام . لكن سكينته ترسل على المواضيع التي يتناولها ازهر الانوار . ليست نبرات صوته متنوعة شتى ، ولكنها تنمّ جميعاً عن صدقٍ واخلاص عظيمين . لا يحرك ذراعيه قط ، وقلما يشير باصبع متكلماً . اما كلامه النوراني المؤلف من جمل جامعة نابضة العصب فهو منطو على قوة العقيدة واليقين . لا يغادر مسألة الاّ اذا ثبت له انهــا فهمت اجود فهم . » جوزف ج . دوك

بجسمه الضعيف احياناً ، لولا ان صديقه مولانا شوكت علي كان ينصب من جثته الكبيرة سداً منيعاً دونه . مريض ، حقيقة لا مجازاً ، لعبادة العامة اياه [١] . وهو في اقصى ضميره كثير الاحتراس من الجمهور الغفير ، شديد الكراهة للمبقراطية او حكومة الغوغاء المطلقي القياد : لا يطمأن باله ولا تسعد نفسه إلاّ في العزلة حيث يطرق سمعه «الصوت الخفيت الساجي» الذي يقضي بالحق [٢] ...

هذا هو الرجل الذي اثار ثلثماية مليون رجل ، وزعزع اركان الامبراطورية البريطانية ، واحدث في سياسة البشر اعظم حركة عرفها التاريخ منذ نحو الفي عام .

اصل اسمه مُهنداس كرمشند غاندي . ولد في دويلة نصف مستقلة واقعة في الشمال الغربي من القطر الهندي ـ في بور بندر المدينة البيضاء على ساحل بحر عمان ، وذلك في ٢ اكتوبر عام ١٨٦٩ . واهل هذه المقاطعة اشداء كثيرو الشغب ، وليسوا بعيدي العهد بالفتن والحروب الاهلية . وهم ايضاً عمليون حسنو النظر في الاشغال ، ازهرت تجارتهم بين عدن وزنجبار . كان جده وابوه وزيرين كبيرين ، جلب كلٌّ منهما لنفسه النقمة باستقلاله في الرأي والعمل حتى اضطر الى الفرار غير آمن على حياته .

---

(١) من مقالة لغاندي في جريدته Young India (الهند الفتاة) — ٢ مارس ١٩٢٢ (٢) ايضاً

فغاندي نبت اذاً في بيئة غنى وذكاء وثقافة ، لكنه لا ينتمي الى الطائفة العليا . وكان اهله من الدين الهندوسي على مذهب « جايين » الذي من اجل مبادئه الأهمسا[1] ـ وهو مبدأ صدع به غاندي ونصره في العالم

ويعتقد الجايينيون ان سبيل الحب خير من سبيل الفهم للوصول الى الله . لم يكن للمال قيمة في عين والد المهاتما ، فلم يخلف لاهله الا اليسير ، وانفق اكثر ما يملكه صدقة . اما امه فكانت غاية في الصلاح والورع حتى ليصدق القول انها للهند كالقديسة اليصابات ، قضت عمرها في الصلاح واعمال البر والعناية بالمرضى . وكانوا في العائلة يتلون « الرامايانا » بصورة منتظمة . ولقد عُهد بتربيته الاولى الى احد البراهمة فكان يقرأ عليه نص « الفشنو »[2] لكنه شكا بعدُ من قلة براعته في السنسكريتية وكان هذا من اكبر دواعي سخطه على التربية الانكليزية التي ضيعت عليه كنوز لغته . وهو برغم حذقه الكتب الهندية

(١) آ : النافية . همسا : فعل الشر . عدم الاساءة لمظاهر الحياة كلها . اللاشر . — هو من اقدم مبادىء الدين الهندوسي ، عني باثباته خاصة (مهافيرا) مؤسس الجايينية ، وبوذا ودعاة عبادة فشنو . ولهذا المبدأ سلطان كبير على نفس غاندي .

(٢) درس حتى السابعة من عمره في مدرسة بور بندر الابتدائية ، ثم في مدرسة راجكوت الاميرية . وبعد العاشرة في المدرسة العليا (High School) في كاتيافار . وفي السابعة عشرة في جامعة احمد آباد .

المقدسة لا يقرأ كتب الفيدا والأوبانشادا إلاّ في ترجماتها [1].

واجتاز اذ كان في المدرسة ازمة « دينية » ذات شأن. فكان — بل حسب نفسه — ملحداً لانه ثار على الهندوسية التي تسربت اليها الوثنية واخرجها الفساد عن اصلها. وبلغ به الكفر أن اكل وبعض رفاقه اللحم سراً (اعظم المعاصي عند الهندوسيين) وكاد يقضي بعدها اشمئزازاً وفرقاً.

زُوج وهو يافع [2] ثم سافر في التاسعة عشرة الى انكلترة لانجاز دروسه في جامعة لندن ومدرسة الشريعة. ولم تأذن له امه بالسفر إلاّ بعد اخذها عليه العهود الجابينية الثلاثة التي تأمر باجتناب الخمر واللحم والنساء.

وصل الى لندن في سبتمبر سنة ١٨٨٨ فأتت عليه اشهر حيرة وخيبة اسرف خلالها في ماله ووقته، ولا همّ له على حد قوله الا ان يصبح من « علية » الانكليز. ثم راض نفسه على

---

(١) حكى حكاية صباه في خطبة سمرية القاها على مؤتمر الطوائف النجسة (الباريا) في ١٣ ابريل ١٩٢١

(٢) خُطب له وهو في الثامنة وتزوج في الثانية عشرة. ولقد اقام النكير بعدُ على طريقة تزويج الاولاد، وحجته ان هذا من عوامل اضمحلال النوع. لكنه يستدرك بقوله إنه يجوز استثناء ان يحصل من هذا الزواج المعقود قبل تكامل الخلق تآلف عجيب بين الزوجين ووحدة روحية. وما زواج غاندي نفسه إلاّ مثال من ذلك جدير بالاعجاب. فان عقيلته شاطرته بؤوسه ونكباته بشجاعة ووفاء لم يعترا قط.

معيشة بسيطة وعمل صارم . واطلعه بعض اصدقائه على الكتاب المقدس ، لكن لم يئن له بعد ان يفهمه ، فاعترته السآمة من الاسفار الأول ولم يتعد سفر الخروج . بيد انه كُشف له وهو في لندن عن جمال « البغفاد جيتا » فأثمله ، وفاض من هذا الكتاب ، النورُ الذي كان يشعر الفتى الهندي بالحاجة اليه ، فردّ الايمان الى صدره ، وتيقن ان « النجاة لن تأتيه الا من سبيل الديانة الهندوسية [1] »

عاد الى الهند سنة ١٨٩١ . عودٌ اليم : كانت امه ادركتها الوفاة وكتموه الخبر . تعاطى المحاماة لدى المحكمة العليا ببمباي ولكنه سيهجر هذه المهنة بعد بضع سنين اعتقادَ انها مغايرة للاخلاق الفاضلة . وكان في اشتغاله بها يشترط ان يكون له حق ترك القضية متى تبين انها ليست عادلة .

كان بعض عظماء الهند في ذلك العهد يوقظون في نفسه حدساً وتوقعاً لمهمته القابلة ، ولُقب « بملك بمباي غير المتوّج » . فمن هؤلاء الرجال البارسي دادابي والاستاذ غوكهيل وكلاهما يشتعل حباً للهند وغيرة دينية عليها : غوكهيل من خيرة رجال الحكم في وطنه واحد السابقين الى احياء التربية الهندية . دادابي مؤسس القومية الهندية (بشهادة غاندي) [2] . وكلاهما ايضاً

---

(١) من خطبة له في ١٣ ابريل سنة ١٩٢١

(٢) هذا السلف نسيَهم الجيل الجديد، وعقَّهم لانه اربى عليهم جرأةً

قدوة حسنة بالحكمة والحلم ودماثة الخلق . كان دادابي اول راع لحماسة غاندي في شبيبته ، وعنه تلقى اول درس عملي في الأهمسا وشأنه في الحياة السياسية — الأهمسا أعني الانفعال او الصبر البطولي اذا جاز جمع اللفظين ، او نزعة النفس المضطرمة الى مقاومة الشر ، ليس بالشر بل بالحب . وسنعود الى الكلام على هذا اللفظ الساحر ، بل الرسالة العلوية التي تؤديها الهند الى العالم اجمع .

في عام ١٨٩٣ بدأ جهاد غاندي في سبيل الهند . ولقد مرّ على هذا الجهاد طوران : فمن ١٨٩٣ الى ١٩١٤ كان الميدان افريقية الجنوبية ، ومنذ ١٩١٤ اصبح الميدان الهند بعينها .

عمل الرجل في افريقية الجنوبية مدة عشرين سنة . فأما ولم يكن لمسعاه هذا صدىً في اروبة ، فأي دليل اعظم على ما لا يكاد يصدق من ضيق الافق الذي تجول فيه انظار ساستنا ومؤرخينا والمفكرين ورجال الايمان : ذلك انّ من مساعي غاندي تتألف سيرة نفسٍ مجاهدة لامثيل لها في هذا العصر — ليس بعظم التضحية واستمرارها فحسب بل بما استتب لها كذلك من النصر المبين في النهاية .

سياسية . لكنّ غاندي ما فتيء حافظاً حرمتهم ، مجلاً اياهم ، لا سيا غوكهيل الذي ربطته به عروة ودادٍ وثيقة ، وكثيراً ما قدم اسمه واسم دادابي ، في مختلف كتاباته ، لتعظمها الهند الجديدة .

كان في افريقية الجنوبية وبخاصة في النتال سنة ١٨٩٠ – ٩١ نحو من خمسين الف هندي . فحرك فيض هذا الشعب الغريب عاطفة بغض الاجنبي في قلوب البيض اهل البلاد ، واخذت الحكومة على نفسها الافصاح عن هذه البغضاء بتدابير قاسية ارادت بها كفّ الاسيويين عن الهجرة الى تلك الديار واكراه القاطنين فيها على الرحيل . فقامت الاضطهادات المنظمة التي تستنفد الصبر ، من الضرائب الفادحة الى التكاليف المذلّة ، فالاهانات المشهودة . وبلغ الأمر بالاهالي ان يشنقوا الهندي جهاراً (قضاء الشعب) او ينهبوا متاعه او يهدموا داره ، وكل ذلك في ظل المدنية البيضاء

وصل غاندي الى افريقية الجنوبية سنة ١٨٩٣ مدعواً الى « بريتوريا » ليرافع في قضية ذات شأن ، على غير علم منه بشيء من احوال الهنود في ذلك القطر . فما خطا خطواته الاولى في النتال لاسيمافي الترنسفال الهولاندي الآ اختبر اختبارات موجعة. هذا الهندي الشريف الاصل الذي كان موضع الاكرام في انكلترة ، والذي لم يسبق له ان نظر الى الاروبيين بغير عين القرين والصديق ، اذا به عرضة لأحط القبائح واشدها فظاظة : يطرد من النُزُل ويُقذف من القطارات ، ويهان ويُصفع ويركم بالرجل. ولولا ان في يده عقداً يربطه بموكليه مدة عام لأُعيد الى وطنه بلا ابطاء . اثنا عشر شهراً تعلم فيها كيف يصبر على المكاره

مسيطراً على نفسه . فلما اتى الميعاد وكان اعجل ما يكون الى الرحيل ، علم ان الحكومة تعدّ قانوناً تسلب به الهنود ما بقي لهم من حقوق وحرية . وكان الهنود ضعافاً عن المقاومة ولا عزيمة ، اشتاتاً ولا انتظام ، راضين بسؤ المآل ولا امل . يعوزهم زعيم وروح . فوقف غاندي نفسه على ذلك ، وبقي .

وحينئذ بدأ الجهاد العظيم ، جهاد وجدانٍ فذّ في قوة الحكومة والجماعة المتوحشة . وكان غاندي بعدُ محامياً فبدأ بأثبات بطلان القانون القاضي بطرد الاسيويين شرعاً ، حتى ارغم انف المعارضة الشموخ وربح دعواه في نظر النتال ولندرة قانونياً ، إن لم يكن عملياً . واجتهد في ختم معاريض عريضة ، وفتح مؤتمر النتال الهندي ، والف جمعية التربية الهندية . ثم انشأ جريدة بأسم « الرأي الهندي » تُحرَّر بالانكليزية وبثلاث لغات هندية . وعقد النية على رفع مستوى مواطنيه فى افريقية ، فاولُ عملٍ اتاه انه تمثل بهم ليكون اجدر بالذود عن مصالحهم واقدر على دفع المضار عنهم . كان زبائنه في جوهانسبورغ من ذوي المكانة واليسار [1] فتركهم وتزوج الخصاصة مقتدياً بالقديس فرانسوا . وعاش عيشة الهنود الصعاليك المضطهدين مشاركاً اياهم في محنهم وبلاياهم بعد ان طهرها وقدسها اذ الزمهم بقاعدة اللامقاومة .

---

(١) كان يربح سنوياً بشهادة غوكهيل من خمسة آلاف الى ستة آلاف جنيه فقنع بثلاث جنيهات شهرياً .

ونظم سنة ١٩٠٤ في فونيكس على مقربة من دوربان مستعمرة زراعية على الخطط التي وضعها تولستوي وكان غاندي به معجباً[1] . فجمع فيها الهنود ووزع بينهم الأرضين بعد ان اخذ عليهم عهداً مقدساً على الفقر . وهو آثر نفسه بأحقر الاعمال واخسّها . هنالك قاوم هذا الشعب الحكومة صامتاً ، سنين طوالا . هجر المدن، فشلّت حياة البلاد الاقتصادية . هو اعتصاب ديني يفلّ سيف العنف ويحطمه كما انحطم سلطان رومة امام النصارى الاولين . ولكن قلّ في اولئك النصارى من سما بدين المحبة والغفران الى الدرجة الرفيعة التي بلغها غاندي اذ كان يبادر الى نجدة المضطهدين انفسهم كلما رآهم في ضيق . فكان غاندي لما تعرّض دولة افريقية الجنوبية للمخاطر الجسيمة وتشغل بدفعها يوقف حكم قاعدة اللامعاونة من قبل الهنود في المصالح العامة

---

(١) نشر العدد الذهبي من جريدة « الرأي الهندي » الصادر في فونيكس سنة ١٩١٤ رسالة ضافية من تولستوي الى غاندي كُتبت في ٧ سبتمبر سنة ١٩١٠ اي قبيل وفاته . وكان تولستوي اطلع على « الرأي الهندي » فشرح صدره ما قرأه فيها عن اللامقاومة الهندية ، وجاء يشجع دعاتها قائلاً : « ان اللامقاومة ناموس الحب، اي انه تطلعٌ وتسامٍ الى تواصل النفوس الانسانية» . وهو الناموس الذي جاء به المسيح وحكماء العالم جميعاً . وقد عثر صديقنا بول بيروكوف في ديوان مخطوطات تولستوي بموسكو على رسائل اخرى من الحكيم الكبير الى غاندي وسينشرها في مجموعة رسائل تولستوي الى الاسيويين بهذا العنوان الجامع « تولستوي والشرق

ودواوين الحكومة ويعرض معونته . ولقد الف اثناء الحرب البويرية سنة ١٨٩٩ فرقة الصليب الاحمر الهندية التي ذكرت في بيان القيادة مرتين ، مشهوداً لها بالشجاعة تحت النيران . ولما فشا الطاعون في جوها نسبورغ عام ١٩٠٤ نظَّم غاندي مستشفياً . وفي ١٩٠٦ ثار الاهلون بالنتال فاشترك غاندي في الحرب وهو على رأس فرقة من نقالة الجرحى ، واثنت عليه حكومة النتال بصورة مشهودة .

ولكن ما كان لهذه الخدم الكريمة السمحاء ان تجرد بغضاء الاجنبي من سلاحها . فالقي غاندي في غيابة السجن مراراً [1] — حتى بعد ثناء الحكومة لبلائه في حرب النتال — وحكم عليه بالاشغال الشاقة ، وجلده الرعاع يوماً وهم في سورة الغضب [2] ومرة تركوه طريحاً اذ حسبوه ميتاً . وهكذا عرف غاندي العذاب بأنواعه ، والذل بضروبه ، والالم والهوان . الا انه لم يؤثر شيء في قوة ايمانه ، بل كانت البلايا تزيدها . ووضع سنة

(١) حكى غاندي حكاية سجنه واختباراته في السجن ببساطة هادئة في مقالة عجيبة تجدها في المجموعة المسماة : خطب ومقالات م . ه . غاندي — المطبوعة في مدراس — ص ١٥٢ - ١٧٨

(٢) ونفس مواطنيه انهالوا عليه ضرباً بالعصي سنة ١٩٠٧ . فلا ننس انه ذاق الامرين واحتمل العنف والاساءة من المضطهِدين والمضطهَدين على السواء . وكان يريب هؤلاء من غاندي اعتداله ، والحكومة لم تأل جهداً في جعله عرضةً للشبهات وفي اضاعة سمعته .

١٩٠٨ كتيبه المشهور « هند سواراج » الحكم الذاتي الهندي ، انجيل المحبة البطولية الذي ردَّ به على دعاة العنف في افريقية الجنوبية (١)

دام الجهاد عشرين سنة ، وبلغ اقصى الشدة بين عامي ١٩٠٧ و١٩١٤ . وكانت حكومة افريقية الجنوبية قد عجلت الى اصدار قانون اسيوي جديد غير مبالية بمعارضة الفئة النيرة من الانكليز فنظم غاندي حينئذ خطة اللامقاومة بتمامها وشمولها . وفي سبتمبر سنة ١٩٠٦ اجتمع الهنود في جوهانسبورغ فحلفوا يمين « المقاومة الانفعالية » واصبح الاسيويون جميعاً بلا فرق في الجنس والدين والمقام ، اغنياؤهم وفقراؤهم ، سواءً فى المفاداة وصدق العزيمة . واتحد صينيو افريقية بالهنود اتحاداً وثيق العرى . كانوا يساقون الى السجون آلافاً ، فلما ضاقت بهم سيقوا الى المناجم . فكأنَّ في السجن مايستهويهم ويجذبهم حتى سمَّاهم الجنرال سمطس الذي كان يضطهدهم « المعارضين عن عمد ويقين » . وحبس غاندى ثلاث مرات (٢) وكان منهم قتلى بل شهداء . وعظمت هذه

(١) سنعود الى الكلام عنه .

(٢) يختم جوزف ج . دوك الذي كشفت محاوراته مع غاندي في الترنسفال عن حقائق ذات بال كتابه المطبوع في اكتوبر سنة ١٩٠٨ بنبذة اتى فيها على وصف غاندي وهو بثياب المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة وكيف سيق الى حصن جوهانسبورغ والقي في حبس مظلم مع مجرمين صينيين عاديين هم في الدرك الاسفل .

الحركة وامتدت سنة ١٩١٣ من الترنسفال الى النتال . فكان الهنود يضربون عن العمل جماهير زاخرة ، ويعقدون اجتماعات عامة تتلظى حمية ، ويمشون في بلاد الترنسفال مشيـة الرجل الواحد . فأثار هذا كله الرأي العام في افريقية وآسية ؛ وسرى السخط في الهند حتى اضطر نفس نائب الملك اللورد هاردنغ الى التصريح به في مدراس اعلاناً عن عواطف الهنود .

على هذه الصورة كان سحر الروح الكبرى وعزيمتها الصادقة التي لا تغلب يفعلان فعلهما . وعفرت القوة ركبتيها راكعة امام الوداعة البطولية[1] . بل ان الد خصوم القضية الهندية واشدهم عداء الجنرال سمطس الذى صرح سنة ١٩٠٩ بأنه لن يمحو من سجل القوانين قراراً مهيناً للهنود ، اقر لخمس سنوات خلت انه سعيد بنسخ ذلك القرار وابطال حكمه[2] . واعترفت اللجنة الامبراطورية التى ألفت بأن غاندي محق في جل مطالبه . وصدر سنة ١٩١٤ قرار يلغي ضريبة الثلاثة جنيهات ويمنح حرية الاقامة بالنتال جميع الهنود الذين يهبطونه ويستوطنونه عمالاً مستقلين . وهكذا نصرت اللامقاومة بعد تضحيات استمرت عشرين عاماً

---

(١) عضد غاندي عضداً شديداً انكليزيان من كرام الانكليز هما س . ف . اندريوس و ف . ف . برصن .

(٢) اشار غاندي مذكراً ، الى هذا الامر في مقالة نشرت في ١٢ مايو ١٩٢٠

عاد غاندي الى الهند وله في القلوب هيبة الزعيم

كانت حركة الاستقلال الوطني قد بدرت منذ بداية هذا القرن ، وكان بعض اذكياء الانكليز أ . د . هيوم والسر ويليام ودّربرن ، من الاحرار الفكتوريائيين ، قد اسسوا منذ ثلاثين عاماً المؤتمر الهندي الوطني وابقوا فيه مدة طويلة على صبغة الولاء ، دائبين للتوفيق بين المصالح الهندية والسيادة الانكليزية. فلما ايقظ انتصار اليابان على روسية الأنفة الاسيوية ، وجرحت تحديات اللورد كرزن وطنيي الهنود ، نشأ في قلب المؤتمر حزب متطرف كان لرأيه في الوطنية الهاجمة غير المسالمة صدى في البلاد . الا ان الحزب الدستوري القديم استمر حتى نشوب الحرب الكونية ، بتأثير ج . ك . غوكهيل ، صادق الوطنية ولكن صادق الولاء لانكلترة . والشعور الوطني الذي تخلل في ذلك الزمن مجلس النواب الهنود كان يسيّرهم جميعاً في سبيل المطالبة بحكم ذاتي (سواراج) هم غير متفقين على دلالته ومعناه . فكان بعضهم قانعاً بالمساعدة الانكليزية ، بينما البعض الآخر لا يرضى الا بطرد الاروبيين من الهند . وبينما كانت انظار فريق منهم طامحة الى مثال الكندا وافريقية الجنوبية ، كانت نفوس الفريق الآخر طامعة بمثال اليابان . حينئذ جاء غاندي بالحل الجديد وهو اقرب الى ان يكون حلّاً دينياً منه الى ان يكون حلّاً سياسياً ، واشد غلواً في الحقيقة من كل ما عداه (هند سواراج) . ولكن

كان يعوز غاندي كي يخرجه الى حيز الفعل ، المعرفة الصحيحة بالوسط والبيئة ، لانه اذا كان في مهمته الطويلة بأفريقية الجنوبية قد وُفق الى اعظم تجربة للروح الهندي وسلاح الأهمسا الصارم ، فلقد مكث هنالك ثلاثاً وعشرين سنة بعيداً عن وطنه . لذلك اعتزل غاندي مستجمعاً قواه لملاحظة ما حوله وتدبره.(١)

وكان لايزال بعيداً عن الافتكار بالثورة على الامبراطورية البريطانية ، حتى اذا نشبت الحرب سنة ١٩١٤ أمَّ انكلترة لتأليف فرقة من نقالة الجرحى . « كان يعتقد اعتقاداً صادقاً (كما كتب سنة ١٩٢١) انه من ابناء الامبراطورية ». وسيذكّر بهذا الامر مرات في رسائله الموجهة (سنة ١٩٢٠) الى جميع انكليز الهند: « ايها الاصدقاء الاعزاء ! لم يعضد الامبراطورية انكليزيّ خيراً من عضدي ، خلال تسع وعشرين سنة من حياتي العامة . . . عرضت نفسي لخطر الموت في سبيل انكلترة اربع مرات . . . واوصيت بالاشتراك والتعاون عن قتناع صحيح حتى سنة ١٩١٩ ».

ولم يكن هذا شأنه هو وحده . فان الهند جميعها سنة ١٩١٤ أخذت في شباك المبادئ الخادعة التي رأت بها حرب الحقوق . ولما سئلتها الحكومة الانكليزية المعونة منّتها بالآمال الجسام ،

---

(١) كان معلمه الحبيب غوكهيل آنئذٍ قد اخذ منه وعداً بان لا يتدخل في السياسة الفعلية قبل تطوافه في الهند لا اقلّ من سنة فيرى عن كثب بني قومه بعد غيبته الطويلة وانقطاعه عنهم .

واوهمتها ان ذلك الحكم الذاتي الذي طالما طمحت اليه يكون من غنائم هذه الحرب الضروس. وفي اغسطس سنة ١٩١٧ وعدها أ. س. مونتاغو وزير الهند الذكي بتأسيس حكومة مسئولة. وبعد استفتاء الامة وقّع نائب الملك اللورد شلمسفورد ومنتاغو بياناً رسمياً عن الاصلاح الدستوري. كانت جيوش الحلفاء في الشهور الاولى من سنة ١٩١٨ في خطر جسيم. وكان لويدجورج قد وجّه في ٢ ابريل نداءً الى الامة الهندية. وفي آخر هذا الشهر ايضاً عُقد مؤتمر الحرب بدلهي، ففهم ممـا دار فيه ان استقلال الهند دانٍ غير بعيد. لذلك لبَّت الهند ذلك النداء بالاجمـاع ومنح غاندي انكلترة مرة اخرى ولاءه واخلاصه. واعطت الهند ٩٨٥٠٠٠ من ابنائها وقامت بتضحيات عظيمة. ثم انتظرت مطمئنة ان تُؤدى ثمنَ حفظها العهد.

لقد كانت اليقظة رهيبة. الخطر في آخر العام زال، وزالت ايضاً ذكرى الخدم المقضية. واذ وقّع عقـد الهدنة اصبحت الحكومة لا تكلف نفسها مؤنة الستر والمداجاة. وكأنما لم يكفها انها حنثت ولم تمنح الهند ما وعدتها من الحقوق والحرية فسلبتها ايضاً ما كان لهـا من قبل. وكشفت قوانين رولات المعروضة في ٢ فبراير سنة ١٩١٩ على المجلس الامبراطوري التشريعي بدلهي عن افحش ما يكون من سوء الظن بالامة التي اقامت هذا المقدار من الادلة على اخلاصها وولائها. فان هذه

القوانين جاءت بدوام الاحكام والتدابير التي تضمنها صك الدفاع عن الهند ، زمن الحرب ، مرجعةً الشرطة الخفية والمراقبة وسائر ما ينتج من حالة الحرب او الحكم العسكري من القيود والمزعجات العاتية . حينئذ سرت في الهند المخدوعة الخائبة رجفة غضب شديد . وبدأت الثورة (١) فنظمها غاندي .

كان غاندي فيما سبق من السنين قاصراً عمله على الاصلاحات الاجتماعية لاسيما على رفع مستوى عمال الفلاحة وتحسين احوالهم . لكنه جرّب في قلاقل ١٩١٨ واثناء الفتن الزراعية التي اضطرمت في كيرا ، من اعمال الغوجرات ، وفي شمپاران ، من اعمال البيحار (ولم يسترع هذا ذهن احد) ذلك السلاح الصارم الذي سيقاتل به في جهاده الوطني العظيم ، اعني اللامقاومة الشديدة الخاصة به ، وسندرسها فيما بعد باسم الصاتياغرافا الذي اطلقه عليها

بيد انه لم يكن حتى سنة ١٩١٩ على رأس الحركة الهندية الوطنية ، بل كان يعتزل عنها نوعاً ما . وكانت الاحزاب المتطرفة التي الفتها سنة ١٩١٦ المسز أني بيزانت (وهذه ما لبثت ان سُبقت) قد رأست الزعيم الهندي الكبير لقمانيا بل قندهار طيلاق . وهو رجل اوتي عزيمة نادرة ، وجمع في حزمة حديدية ثالوث العظمة : الذكاء والارادة والخلق . دماغ ارحب من دماغ

---

(١) يمكن تأريخ الحركة الصاتياغرافية بالثامن والعشرين من فبراير سنة ١٩١٩

غاندي ، وهو اوفر قسطاً من الثقافة الاسيوية العتيقة واشد تمكناً فيها . عالم ، رياضي ، واسع الاطلاع ، ضحى مطالب نبوغه لخدمة وطنه . وهو كغانــدي خلي من كل مطمع شخصي ، لا يرجو إلا فوز قضيته فيدع ساحة العمل ويعود الى ابحاثه العلمية. كان كل حياته زعيم الهند بلا منازع . ماذا كان يحصل لو لم يختطفه موت عاجل من وسط شعبه سنة ١٩٢٠ ؟ ان غاندي الذي كان متخشعاً امام عظم نبوغه اختلف واياه على الطرق السياسية. ولا ريب في انه لو بقي طيلاق حياً لما كانت لغاندي غير الزعامة الدينية للحركة . ماذا تكون نهضة الهند ووثبتها بهذه القيادة المزدوجة ! اذاً لما ثبت في وجهها شيء ، لان طيلاق كان مالكاً سؤدد التنفيذ والعمل ، كما كان لغاندي سؤدد القوى الباطنة . ولكن القدر لم يشأ ذلك ، فكان مدعاة اسف من اجل الهند ومن اجل غاندي نفسه ، لأن مقام زعامة الاقلية او الخاصة او الصفوة المفكرة ، اولى بما طُبع عليه غاندي وبما يضمره من رغبات. فهو لم يثق يوماً بالعامة ، بينما كانت لطيلاق هذه الثقة. فان هذا الرياضي العامل كان مؤمناً بالعدد ، وكان ديمقراطياً فطرة . كذلك كان سياسياً عن عمد ، لا يبالي مطالب دينه . وكان يقول : « ليست السياسة للصاخو » اي للقديسين والاتقياء . كان هذا العالم على استعداد لان يضحي الحقيقة في سبيل تحرير بلاده كما صرح : هذا الرجل العفيف الكامل الذي لم تشب حياته

شائبة ، كان لا يحجم عن القول ان كل شيء حسن في السياسة . وليس ما يمنع الاعتقاد انه كان من الممكن حصول صلات فكرية بين هذه الشخصية وبين ديكتاتورية موسكو . اما فكر غاندي فغير مؤاتٍ لشيء من هذا القبيل [١] . والمناقشات التي دارت بين طيلاق وغاندي لم يكن من شأنها ، مع توكيد الاحترام العظيم المتبادل بينهما ، إلاّ ان تثبت ما بين طريقتيهما من التضاد اعني ـ وهما رجلان متصفان بالصدق المطلق ، منسوجة صور العمل عندهما على منوال صور الفكر ـ التضاد بين المبادئ الاساسية التي تسيطر على حياتهما . فغاندي يجهر امام طيلاق بأنه اذا خير مكرهاً آثر الحقيقة وضحى الحرية . ومهما يكن حبه الديني لوطنه فهو جاعل دينه في مقام اسمى ايضاً من وطنه :

« انا مترّوج الهند مدين لها بكل شيء . واعتقد ان عليها مهمة ، فان قصرت عن ادائها فهي اذاً ساعة محنتي وبلائي ، وارجو ان لا ازلّ او اقصر انا . ليس لديني حدود جغرافية . اذا كان ايماني حياً فهو يجاوز حبي الهند نفسها ويفيض عنه .. (٢)

كلمات جليلة سامية تودع في الجهاد الذي سنصف اطواره كل دلالته الانسانية ، لانها تجعل رسول الهند رسولاً الى العالم اجمع ومواطناً لنا جميعاً [٣] . فان من اجلنا ايضاً وفي سبيلنا ما

---

(١) قضي صراحة على البلشفية (٢٤ نوفمبر ١٩٢١)

(٢) « اغسطس سنة ١٩٢٠ . غاندي هنا يضاد دعاة «حكم السيف» .

(٣) « البشرية واحدة . يوجد فروق اجناس ، ولكن كلما ارتفع جنس

ينشب القتال الذي يخوضه المهاتما منذ اربعة اعوام

مما هو جدير بالذكر انّ غاندي اذ ترأس حركة العصيان على قانون رولات لم يقدم على ذلك إلا « لصرف هذه الحركة عن طريق العنف »[1]. كان العصيان حاصلًا لامحالة، فتحتمت إدارته

ولا يعزب عن بالنا لاكتناه ماسيأتي ان فكر غاندي بناء ذو طبقتين: اولاهما اسس دينية عظيمة جداً، وفي ثانيتهما العمل الاجتماعي الذي يرفعه على هذه القواعد الخفية، مطبّقاً اياها على ممكنات الزمن ورغائب البلاد. فهو ديني فطرة، سياسي بالضرورة، وكانت الصفة السياسية والعملية في مساعيه تزداد وضوحاً وقوة مع اشتداد دفع الحوادث وموت رؤساء الامة، اللذين اضطراه الى ان يمسك دفة السفينة وسط العاصفة ولكن لن يزال الشيء الجوهري في البناء هو الناووس. هذا الناووس رحب عميق، شيد ليحمل كاتدرائية غير التي يجب التعجيل في بنائها. هو وحده باق، وماعداه وقتي لم يُعدّ إلاّ لأيواء اعوام النقلة. يهمنا اذاً ان نعرف هذه الكنيسة الارضية التي يقوم

كاثرت واجباته وعظمت » — عن كتابه : (الدين الاخلاقي)

(١) ٥ نوفمبر ١٩١٩

فكر غاندي ومذهبه على آساسها الثابتة ، ففيها كان غاندي يختلي كل يوم ليستعيد القوى اللازمة للعمل — فوق .

يؤمن غاندي ايماناً صادقاً بدين امته الهندوسية . وليس ايمانه ايمان عالم متقيد بالنصوص والكتب ، ولا ايمان تقي ورع لاينقد بل يسلم تسليماً اعمى بكل منقول : ان عقيدته لفي رقابة مزدوجة من وجدانه ومن عقله .

« ان اجعل من ديني وثناً . وما كنت لاغضي عن اي شر يؤتى باسمه الاقدس ، او لاجد عليه عذراً (١) . . لارغبة عندي في ان اقود ورائي رجلاً واحداً اذا كنت عاجزاً عن مخاطبة عقله . بل اني اذهب حتى الى رفض ربوبية الشاسترا الاقدمين اذا كان عقلي لايصدق بها (٢) . »

ثم انه لا يسلم للهندوسية — وهذا امر جوهري — بأي حصر للحقيقة ولا يتسامح فيه :

« لا اعتقد ان ربوبية الفيدا هي وحدها الحق . اعتقد ان الكتاب المقدس والقرآن والزندافستا موحى بها من عند الله كالفيدا . . ليست الهندوسية ديناً تبشيرياً ، ففيها متسع لعبادة كل انبياء العالم . . انها تأمر كلاً منا ان يعبد الله حسب عقيدته (دارما) فهي اذاً تعيش في سلام مع جميع الاديان (٣) .

---

(١) ٢٧ اكتوبر ١٩٢٠

(٢) يوليو ١٩٢٠ . — « لا تجبرني عقيدتي على التسليم بان كل الآيات موحى بها من عند الله . ارفض التقيد باي تفسير مهما كانت منزلته من العلم اذا رأيته مخالفاً للعقل وللشعور الادبي » ٦ اكتوبر ١٩٢٠

(٣) ايضاً . — « الاديان كلها طرق مختلفة توصل الى غاية واحدة » هند سواراج . — « تقوم كل الاديان على قواعد اخلاقية واحدة ، وديني

وهو لايتعامى عن الضلالات او المفاسد التي تسربت الى الهندوسية على مر العصور، بل يحمل عليها حملات صادقة، ولكن ..

« .. لا اجد سبيلاً الى وصف شعوري نحو الهندوسية ، كما اني لا اقدر على وصف شعوري نحو امرأتي . انها تثير فيّ من العواطف ما لا تثيره امرأة غيرها . لا لانها سليمة من كل عيب، بل انا لااخشى القول إن فيها من العيوب اكثر مما ارى . ولكن ثمة شعوراً برابطة لن تنحل . كذالك امري مع الهندوسية بكل معايبها وقيودها . ليس يستفزني شيء بقدر ما تفعله موسيقى الجيتا والرامايانا وهما كتابا الهندوسية الوحيدان اللذان استطيع ادعاء معرفتهما .. اعرف المفاسد التي تنجس اليوم المعابد الهندية الجليلة ، ولكني احبها برغم هذا كله . من رأيي الاصلاح الى النهايه ولكني لا ارد واحدة من العقائد الجوهرية في الهندوسية (١) » .

ماهي اذاً الحقائق الجوهرية التي يُسلم بها؟ ذكرها صراحة في مقالة مشهورة نشرت في السادس من اكتوبر سنة ١٩٢١ هي بمثابة اركان الدين في نظره :

« ١ — اؤمن بالفيدا والاوبانشادا والبورانا وبكل ماهو معروف باسم الكتب الهندوسية . فانا مؤمن اذاً بالأفتارا وبالاحياءآت

« ٢ — اؤمن بالفرناشراما دارما (٢) نظام الطوائف او الطبقات ولكن

الاخلاقي مؤلف من الشرائع التي تربط كل البشر » الدين الاخلاقي .

(١) ٦ اكتوبر ١٩٢١

(٢) لغةً — فرنا : لون ، طبقة ، طائفة . اشراما : المكان الذى يكون فيه التدريب والرياضة . دارما : الدين . فالمجتمع عبارة عن نظام طوائف او طبقات ، وهذا هو اساس الهندوسة .

بمعناه الفيدي (نسبة الى الفيدا من كتب الهندوس المقدسة) الصحيح لا بمعناه الحاضر الجافي الخشن الذي تفهمه العامة

« ٣ . اؤمن بحماية البقرة بمعنى اوسع جداً من مفهوم العامة

« ٤ . لا احرم عبادة الاوثان » .

ايما اوروبي يقف عند هذا الموضع من مطالعة هذه العقيدة فهو يحكم بان الذهنية التي تبدو منها مباينة لذهنيتنا الى الدرجة القصوى ، وبانها محصورة مضيق عليها في دائرة من العقائد الدينية والاجتماعية البعيدة عنا زماناً القصية مكاناً ، فلا توزن قط بميزان فهمنا ، ومن العبث اذاً ان نمضي في القراءة . ولكن لا . ليستمر فهو واجد بعض بضعة سطور هذه الجملة التي هو لها آلف واليها اقرب :

« اؤمن بالحكمة الهندوسية القائلة انه لا يدرك امرؤ حقيقة الشاسترا اذا لم يبلغ درجة الكمال في العصمة (أهمسا) والحقيقة (صاتيا) وإمرة النفس (براهمه شريا) ولم يزهد في كل متاع او غنىً في هذه الدنيا . »

هنا يلتقي كلام الهندوسي بكلام الانجيل . وكان غاندي على بينة من هذه القرابة ، فان كتابه « الدين الاخلاقي » يختتم بأحد اقوال المسيح [1] . ولقد سأله قس انكليزي سنة ١٩٢٠ عن الكتب التي احدثت ابلغ الاثر في نفسه فكان اول ما ذكره منها : العهد الجديد [2] بل هو يقر ايضاً [3] بأن « الخطبة على

(١) « اطلبوا ملكوت الله والعدل تُعطَوا ما بقي ، فضلاً » .

(٢) ٢٥ فبراير ١٩٢٠ (٣) لجوزف ج . دوك سنة ١٩٠٨

الجبل » كشفت له سنة ١٨٩٣ عن المقاومة الانفعالية . فسأله القس حينئذ والعجب آخذ منه :

« — ألم تكن تعرفها قبل ذلك من مطالعة الكتب الهندوسية ؟

« - كلا . كنت اعرف قبل ذلك البغفاد جيتا واعجب به ، لكن العهد الجديد هو الذي فتح ذهني لشأن المقاومة الانفعالية . وكان قلبي يفيض سروراً وانا اطالعه . ثم مكّن البغفاد جيتا ذلك الاثر في نفسي حتى جعل تولستوي بكتابه (ملكوت الله في انفسكم) هذا الرأي في صورته الثابتة »[1] .

ولا يعزب عن بالنا ان هذا المؤمن الاسيوي مغتذٍ بآراء تولستوي[2]

---

(١) قال ايضاً لجوزف ج . دوك :

« ان الله تجلى عدة تجليات في القرون الغابرة . يقول كرشنا في الجيتا : اذا وهن شأن الدين وساد الكفر فأنا اتجلى . لنصرة الخير وكسر الشر وتوطيد الدين (دارما) انا أبعث دائماً وابداً . —

« ان المسيحية جزء من عقيدتي والمسيح متجلٍّ سام لله . ولكن الله لم يتجلَّ فيه وحده ، ولست اراه وحده على عرشٍ فريد . »

(٢) في آخر رسالة (هند سواراج) قائمة بستةٍ من تصانيف تولستوي يوصي غاندي بدرسها (لا سيما « ملكوت الله في انفسكم » و « ما هو الفن ؟ » و « ما العمل ؟ ») . — ولقد حدث غاندي جوزف ج . دوك عن التأثير البليغ الذي كان لتولستوي في نفسه ، ثم قال له انه لم يتبعه في الافكار السياسية . — واذ سُئل سنة ١٩٢١ : ماهي علاقاتك بالكونت تولستوي؟

وانه ترجم بعض مؤلفات رسكن [١] وافلاطون [٢] وانــه يستشهد بطورو ويعجب بمازيني ويقرأ ادوارد كاربنتر ، وان ذهنه مشرب بالفكرين الاروبي والامريكي . فليس مــا يحمل الغربي اذاً على اعتبار نفسه غريباً عن فكر غانــدي اذا تكلف مؤنة التقرب منه ، وانه ليدرك حينئذ المعاني البعيدة في بنود القانون الذي ادهشه نصه . وثمة على الاخص مادتان يلوح انهما تقيمان حاجزاً منيعاً بين روح اروبة وروح الهند الديني ، اعني عبادة البقرة ونظام الطوائف [٣] ولكن لنرَ ما معناهما في نظر غاندي :

حقاً انه لا يعتبرهما مادتين ثانويتين في مجموعة مذهبه . فحماية البقرة ميزة الهندوسية ، ويرى غاندي في هذا المبدأ اجل الادلة على الترقي الانساني . لماذا ؟ لان البقرة رمز عن « العالم الادنى من الانسان » العالم الذي يبرم البشر واياه عهد محالفة . ومعناه :

اجاب في جريدة الهند الفتـــاة (٢٥ اكتوبر ١٩٢١) : علاقات معجب به متشيع ، مدين له في الحياة بشيء كثير . »

(١) يوءثر من كتب رسكن : « تاج الزيتون البري » The Crown of wild Olive . (٢) « مديح سقراط ووفاته » كتاب ترجمه غاندي فكان في جملة الكتب التي منعت انتشارها حكومة الهند سنة ١٩١٩ .

(٣) لامجال للوقوف عند عبــادة الاصنام . لان غاندي يقول : « انا لا اكرّمها ، ولكن هذا جزء من الطبيعة البشرية . » فهو يعتبرها حاجة جديرة بالاحترام ناشئة عن نقص العقل الانساني الذي يشعر احياناً بحاجــة الى تجسيم

« الاخوة بين الانسان والحيوان» او هو كما جاء في عبارة له جميلة « يحمل الانسان الى ما بعد حدود نوعه ، ويثبت مماثلة الانسان لكل ذي حياة ». اما اختيار البقرة دون غيرها من العجماوات فلانها في الهند خير رفيق ومنبع خير وبركة . وغاندي يرى في « هذا الحيوان الوديع قصيدة رحمة » . ليست هذه العبادة على شيء من الوثنية ، وليس اشد من غاندي على الفتشية الخلو من الشفقة كما نعهدها اليوم في الهنود الذين يستمسكون بالظاهر والنص غافلين عن العمل بروح الرحمة « نحو مخلوقات الله العجماء ». فاذا فهمنا هذا — ومن كان اجدر بفهمه من الفقير الأسيزي ! — لم يبق ما يدعو الى التعجب من عظم الشأن الذي خص غاندي به ذلك المبدأ . وليس بمخطيء في قوله ان حماية البقرة بالمعنى الذي يريده « هبة الهندوسية للعالم » ، لانه يزيد على الوصية الانجيلية: «احبب قريبك حبك لنفسك» قوله « كل ذي حياة قريبك[1] »

من الجائز ان يكون نظام الطوائف اعسر فهماً وابعد عن مدارك الاوروبيين (اقلّ ما يكون في اوروبة اليوم اذ الله عليم

عقيدته او تجسيدها كي يحسن العبادة . فليس ثمة اذاً إلا ما نشاهده في جميع الكنائس الكاثوليكية .

(١) راجع في عبادة البقرة مقالات ١٦ مارس و ٨ يونيو و ٢٩ يونيو و ٤ اغسطس ١٩٢٠ و ١٨ مايو و ٦ اكتوبر ١٩٢١ في جريدة الهند الفتاة . وفي الطوائف مقالتي ٨ دسمبر ١٩٢٠ و٦ اكتوبر ١٩٢١

بما يخبؤه المستقبل من تطور لم يبق له من الديمقراطية إلا اسمها).
لذلك لن اطمع في جعله مقبولاً ببسط التآويل التي جاء بها غاندي ولا اجد رغبة في ذلك. ولكنها على كل تدل بجلاء على ان هذه العقيدة ليست ناشئة عن روح الصلف والكبر او السؤدد الاجتماعي بل عن شعور بالواجب المترتب على كل طبقة اوطائفة من طوائف الهنود، كلٌّ حسب مقامه. قال غاندي:

«ثمة ما يميل بي الى الاعتقاد ان ناموس الوراثة ابدي، وان كل سعي الى تبديله يؤدي الى الاختبــاط المطلق والفوضى الشاملة. فالفرناشراما ملازمة للطبيعة الانسانية ولم ترد الهندوسية على انها رتبتها ونظمتها..»

ولكنه يحصر الطبقات كلها في اربع فقط: البراهمة (طبقة الروحيين واهل الرأي والعلم) والقشاترية (طبقة العسكريين ورجال الحكم) والفيشية (التجار) والشودرة (العمال وارباب الصناعات اليدوية) ولا يسلم فيما بين هذه الطوائف بأدنى نسبة من الرفعة والخفض. كل ما في الامر انهـا قابليات ومواهب ليس الا. هناك فروض وواجبات، ولا فضل ولا ميزة على الاطلاق [1]

«مما يخالف روح الهندوسية ان يخص امرؤ نفسه بمقام اعلى او ان يجعل آخر في مرتبة ادنى. خلق الناس جميعاً لخدمة خليقة الله: البرهمي بعلمه

---

(١) لما جمدت في العصور الخالية الطوائف الاصليــة وتحجرت طبقات متعجرفة رفعت الاوبانشادا اصواتها بأنكار ذلك والنعي على اهله.

والقشاتري بقوته وحمايته ، والفيشي بحذقه التجاري ، والشودرة بعمله الجسدي . ولا يعني هذا كون البرهمي معفياً من كل عمل جسدي ، ولا كون الشودرة لا يستطيع اكتساب المعارف كلها ، بل يعني ان هذا يجيد الخدمة بجسده اكثر وليس من داع لان يحسد الاخرين على وظيفتهم . والبرهمي الذي يدعي فضلاً لانه عالم يسقط من مرتبته لهذا الادعاء وحده وما هو على شيء من العلم الحقيقي . . ليس القصد بالفرناشراما الا اقتصاد العزة والعمل الاجتماعي (بحسن توزيعهما) وسيطرة المرء على نفسه بقوة الارادة . »

فهي اذاً قائمة على نكران الذات وليس على الاثرة والامتياز . ولا ننس ان الطبيعة في عقيدة التناسخ تعدّل الامور اذ تجعل البرهمي في الوجودات المتعاقبة شودرة مثلاً ، والشودرة برهمياً وهكذا .

اما مسألة الپاريا فلا علاقة لها بمسألة الطوائف الاربع المختلفة والمتساوية . وسنأتي على وصف الحماسة المضطرمة التي مازال غاندي يحارب بها هذا الحيف الاجتماعي ، وفي ذلك وجه من وجوه دعوته الأبلغ تأثيراً ، لانه يعتقد ان مسألة الپاريا خزيٌ الهندوسية وانها انكر التحويرات الطارئة على الدين الحقيقي ، بل انه لرجس يؤلمه ألماً لايطاق :

« خير لي ان أقطع ارباً من ان أنكر اخواني من الطبقات المدحورة . لا اتمنى ان ابعث ، ولكن اذا قدر لي ذلك فاقصى مناي ان يكون بعثي بين الانجاس كي اشاطرهم الاهانة واعمل على خلاصهم.(١) » .

---

(١) ٢٧ ابريل ١٩٢١

ولقد تبنى طفلةً من هؤلاء المساكين ، فهو يتكلم بحنان عظيم عن هذا العفريت الصغير الساحر البالغ سبعاً من العمر والذي كان يجلب لداره المطر والصحو .

قلت مايكفي لاظهار ما ضمّ عليه ثوب العقيدة الهندوسية من القلب الانجيلي الكبير . هنا تولستويٌ اعطف وارق وابلغ طمأنينة نفس ، بل اذا جرأت على القول — اقرب الى المسيحية فطرةً ، وبمعناها العام ، لان تولستوي مسيحي عمداً اكثر منه فطرة .

ليس الشبه بين الرجلين اظهر ، ولا تأثير تولستوي اصدق ، منهما في حكم غاندي على الحضارة الاروبية حكمه الشديد .

ما فتأت دعوى المدنية يقيمها بعد روسو ذوو الافكار الحرة في اروبة ، ولم يكن على آسية في يقظتها الا ان تقتبس من شكاياتهم وانتقاداتهم ، فتؤلف منها اضخم سجلّ في اتهام المغيرين عليها . ولم يفت غاندي هذا الامر ، فان في (هند سواراج) قائمة بهذه المؤلفات المتّهِمة ، بينها طائفة لا بأس بها مما الفه الانكليز . ولكن الكتاب الذي لا يُرد عليه هو الكتاب الذي كتبته المدنية الاروبية بدم الشعوب المضيمة السليبة المدنسة بأسم المبادئ الكاذبة . وما الحرب الاخيرة ، حرب المدنية المزعومة ، الاّ مجلىً واضح لهذا الكذب وهذه الوحشية ، لانها كشفت عنهما الستار واظهرتهما بلا حياء للملأ اجمع . وكان

من غفلة اروبة ان دعت شعوب آسية وافريقية ليشهدوا عريها ، فرأوا وحكموا :

« كشفت الحرب الاخيرة عما في المدنية السائدة اليوم على اروبة من طبيعة شيطانية(١) . لقد حطم الغالبون باسم الفضيلة جميع الانظمة الاخلاقية التي قامت عليها علاقات الامم . ولم يروا في كذب او فرية ، من العار مالا يجوز معه الانتفاع بهما . ووراء هذه الجرائم كلها عامل مادي صرف . ليست اروبة مسيحية : إنها تعبد ممون . » (٢)

هذه افكار تقع عليها عشرين مرة في كتابات اليابانيين والهنود منذ خمس سنوات . بل الذين يحترسون من الجهر بها ، لتجدن هذا الاعتقاد منقوشاً خلف جباههم . وليس هذا ايسر النتائج المتلفة التي اعقبها انتصار ١٩١٨ الاشبهُ بالخذلان . ولكن غاندي لم ينتظر حلول سنة ١٩١٤ ليبصر وجه المدنية الحقيقي ، فقد كشفت له عن قناعها في العشرين عاماً التي قضاها بافريقية الجنوبية ، واعلن في هند سواراج (١٩٠٨) ان «المدنية الحديثة هي الرذيله الكبرى»

المدنية في رأي غاندي مدنية اسماً ليس إلاَّ . هو — هذا التعبير مقتبس من الهندوسية — « العصر الاسود ، عصر الظلمات» لانه يجعل للحياة غرضاً واحداً — الصلاح المادي ، ولا تعنيه مصالح الروح على الاطلاق . ان المدنية تهيم الاروبيين وتستعبدهم

---

(١) هذا لفظ يجري به قلم غاندي كثيراً : « النجاسة (الاعتقاد بالباريا) من اختراع الشيطان — ١٩ يونيو ١٩٢١» (٢) ٨ سبتمبر ١٩٢٠

للمال وتجعلهم عاجزين عن معرفة الطمأنينة بل عن كل حياة باطنة. هي جحيم الضعفاء والطبقات العاملة، ومنها اتلاف حيوية الشعوب. ستهدم هذه المدنية الشيطانية ذاتها بذاتها. عدو الهند الحقيقي هي — اكثر من الانكليز الذين ليسوا اشراراً، كلٌ بحد ذاته، بل هم مصابون بداء مدنيتهم. لذلك يحارب غاندي من مواطنيه اولئك الذين يريدون طرد الانكليز ليجعلوا الهند دولة «متمدنة» على النمط الاروبي قائلاً: اذا تمَّ هذا فقد ابقينا «طبع النمر بلا نمر». كلا ثم كلا. «ان المجهود العظيم الوحيد الذي يُطلب منا هو طرد المدنية الغربية».

يحمل غاندي حملة شديدة على ثلاث طبقات من الناس: القضاة والاطباء والمعلمين. فاما هؤلاء فالسبب بيّن، وهو انهم انسوا الهنود لغتهم الخاصة وروحهم الخاص، وانهم يحطون الناشيء من الوجهة القومية، وانهم فوق ذلك لا يخاطبون إلا العقل، غافلين عن القلب، مهملين الخلق. ثم انهم ينقصون من قدر العمل اليدوي على حين انه من الجناية الظاهرة تنظيم تربية ادبية صرفة في بلادٍ ثمانون في المائة من ابنائها زراع والعشرة صناع. ومهنة القاضي مغايرة للاخلاق الفاضلة؛ لان الحاكم في الهند آلة بيد السلطة البريطانية ولاشأن لها إلا اذكاء نار الخلف والشقاق بين الهنود. وهي بوجه عام تتعهد الجدل والخصومات في كل البلاد: ان القضاء استغلال جدّ رابح لغرائز السوء. — اما الاطباء

فيعترف غاندي بأنه جذب اليهم بدأةً ، لكنه ما لبث ان علم ان حرفتهم غير شريفة . فالطب لا يعنيه الا التخفيف من اوجاع المرضى غير مبال باجتثاث اصول الامراض وهي الرذائل على الاغلب ، بل يمكن القول انه ينميها بهديه ذويها الى وسائل التلذذ والتمتع بها بأقل المخاطر ، فهو اذاً عون على افساد خلق الامة فضلاً عن كونه يخنث هذا الخلق بوصفات « السحر الاسود[1] » التي تصرف عن رياضة الجسد والروح على الصبر والبطولة . ويعارض غاندي هذا الطب الغربي الكاذب الذي يزري عليه في مواضع عديدة زراية جاوزت الحد ، بالطب الواقي الصحيح الذي خص له احد مؤلفاته الشعبية الموجزة وهو « دليل الصحة ». هذا الكتيب ثمرة اختبار عشرين سنة ، تناول فيه الاخلاق والمعالجة على السواء ، لان « المرض ليس نتيجة اعمالنا فحسب بل هو ايضاً نتيجة افكارنا » . وليس بعسير وضع القواعد للوقاية من العلل « لان اصل الامراض كلها واحد ، هو مخالفة نواميس الصحة الطبيعية . الجسد مقام الله فيجب ان يظل طاهراً ابداً » . وان في وصايا غاندي وقواعده الطبية (رغم اصراره على نكران علاجات مجربة) شيئاً كثيراً من اصالة الرأي وحسن النظر ، ولكن ثمة ايضاً تحريجاً اخلاقياً

---

(١) لا يعزب عن بالنا ان من اعظم شكايات غاندي من طبابة اروبة كونها تلجأ الى تشريح الأحياء « اشد جرائم الانسان سواداً . »

بالغاً الغاية .[1]

انَّ قلب المدنية الحديثة (عصرُ الحديد – قلبٌ حديد) الماكنة . هو الوثن العظيم المخوف الذي يجب تحطيمه . واكبر اماني غاندي ان يتجنب النظام الماكني الحديث في الهند . وهو يؤثر على الهند مستقلة ولكن وارثةَ الماكنية الانكليزية «عبودة الهند للسوق الانكليزية» :

« خير لنا ان نشتري القماش من مانشستر من ان نقيم معامل مانشستر في الهند . فأنه لن يفضل الركفلر الهنديُّ اخاه الاميركي . الماكنة خطيئة فاحشة لانها تسترق الشعوب . . . والمال سم كالرذيلة الشهوانية . »

ولكن الهنود الذين غلبتهم الافكار الحديثة يسألون : كيف تصبح الهند اذا خلت من الخطوط الحديدية والترامات والصنائع الكبرى؟ فيجيبهم غاندي : ألم تكن الهند من قبل؟ . « منذ آلاف السنين والهند ثابتة لا تتزعزع ، وحدها وسط امواج الممالك الزائلة . زال كل ما عداها وفازت هي منذ آلاف السنين بأمرة النفس وبعلم السعادة ، فليس لها ان تتعلم شيئاً في هذا الصدد من الامم الاخرى . وهي لم ترغب في الماكنية والحواضر الكبرى ، فان المحراث العتيق والمغزل والتربية الهندية القديمة ، كل ذلك ضمن لها الحكمة والصلاح . يجب علينا ان نعود الى البساطة الاولى لا طفرة – هذا لا ريب فيه – بل رويداً رويداً ، بأناة وصبر ،

---

(١) تذكرنا صرامة مذهبه لاسيا في امر العلاقة الجنسية بالقديس بولس

جاءلا كلٌ منا نفسه قدوة .. »[١]

هذا جوهر رأيه وانه لذو خطر . فهو يحتمل نكران الترقي ويكاد يتعداه الى نكران العلم الاروبي[٢] . ان هذه العقيدة الممثلة لروح العصور الوسطى معرضة اذاً لان تصطدم بالاندفاع البركاني الذي للفكر الانساني فتتمزق مزائق . ولكن لعل الحكمة تقضي علينا بأن لا نقول « الفكر الانساني » بل « فكر انساني » اذ لو جاز التصديق ـ وانا من المصدقين ـ بوحدة السمفونيا في الروح الكوني، فلا ينكر أنها مؤلفة من اصوات مختلفة ، كلٌ منها يوقع توقيعاً خاصاً . وكأنما غرُبنا الفتى قد استهواه توقيعه فنسي انه لم يؤتَ ادارة هذه الجوقة منذ الازل، وان ناموس ترقيه عرضة للكسوفات وللحركات المتعاكسة وللتكرارات ، وان تاريخ المدنية الانسانية هو بعبارة اصح تاريخ مدنيات ، وانه اذا شوهد في كل منها ترق (متغير ، كاووسي ، متكسر ، واقف احياناً) فلا يصح الجزم بأنه كان ثمة ترق لاحدى المدنيات

---

(١) هند سواراج

(٢) اذا كان غاندي لا يعنى بصيانة العلم الاروبي فهو يسلم بضرورة الابحاث العلمية لما تستلزمه من رياضة صارمة . وانه لمعجب بغيرة رجال العلم الاروبيين وتفانيهم ، ويغلب عليه جعلهم في مقام ارفع من مقام مؤمني الهندوس . هو يحترم العقل ولا ينكر الاّ السبيل التي اختارها هذا العقل . — ولكن التضادّ بديهيٌ برغم هذه التحفظات وسنرى بعد كيف يحتج ثاغور بحق ، على ما عند غاندي من روح القرون الوسطى .

الكبرى على اخواتها .

ولكن لو اعرضنا عن النظر هنا في عقيدة الترقي الاوروبية ، واكتفينا باعتبار الحركة الحاضرة مضادة لابعد اماني غاندي ، فلا يظنن ظان ان عقيدة غاندي ستنحطم عند تلك الحركة ، وإلا كان هذا جهلاً بالروح الشرقي . يقول غوبينو : « ان الاسيويين اشد عناداً منا في كل الامور . فهم ينتظرون قروناً لدى الضرورة ولا تهرم فكرتهم بعد هذا السبات الطويل ولا تخسر شيئاً من قوتها . » ما كانت القرون لتخيف الهندي . ان غاندي مستعد لان يفوز في بحر العام . ولكنه مستعد ايضاً لان يفوز خلال بضعة قرون . هو يرفق بالزمن ولا يعنف ، فاذا تمهل الزمن رافقه غاندي في تمهله . واذا وجد الهند غير متأهبة لفهم الاصلاحات المتطرفة التي يريد الزام بلاده اياها ، وغير قادرة على ممارستها ، عرف كيف يؤلف بين مساعيه وبين الممكنات . وليس مما يدعو الى العجب سماعنا هذا العدو اللدود للماكنية يقول سنة ١٩٢١ :

« لن ابكي زوال الماكنات ولكن لا انوي (في الحاضر) شيئاً ضدها . . » (١)

او :

« ناموس الحب الكامل (بلا قيد او استثناء) هو ناموس كياني .

---

(١) ١٩ يونيو ١٩٢١

ولكني لا ادعو الى هذا الناموس الاسمى بالتدابير السياسية التي ارى اتخاذها والا كنت حاكماً على نفسي بالفشل ... ليس معقولاً ان ننتظر من العامة في الوقت الحاضر خضوعاً لهذا الناموس(١) .. ما انا بصاحب رؤى، وازعم اني صاحب مثل اعلى عملي . » (٢)

هذا التعريف صحيح . فهو لا يكلف الناس إلاّ ما في طاقتهم اداؤه ، لكنه يسألهم كل ما في طاقتهم . وهذا « الكل » شيء كثير لأن امره مع امة كالهنود ، الامة الهائلة بعديدها (٣) وعمرها ، وروحها الذي لا يسبر غوره . لقد تمّ الاتفاق بين هذه الامة وبين غاندي لأول تماسّ حصل ، فهما يتفاهمان بغير ما كلام . غاندي يعرف ما ينبغي له ان ينتظر ، وهذه الامة تنتظر ما سيسألها غاندي ان تعمل .

بينهما اولاً هذا الاتفاق الصريح : السواراج او حكم الهند الذاتي (٤) يقول غاندي :

« أعلم ان غاية الامة هو السواراج وليس اللاعنف .. »

وبلغ به الحد أن زاد هذه العبارة التي يدهش صدورها منه :

« اوءثر ان أرى الهند حرة مستقلة بالعنف على ان اراها مستعبدة مغلولة الى عنف المسيطرين » .

---

(١) ٩ مارس ١٩٢١ (٢) ١١ اغسطس ١٩٢٠ (٣) خمس سكان المعمور

(٤) اشتقاقاً : سوا (ذات) راج (حكومة) . الحكم الذاتي . اللفظ قديم ككتب الفيدا ، لكنه بعث من مدفنه وأدخل في لغة السياسة بفضل دادابي البارسي معلم غاندي .

ولكنه ما لبث ان صحح قوله جاهراً بأن هذا فرض المستحيل اذ ليس العنف بمنقذ الهند ولا يمكن ان ينال السواراج الا بقوى الروح ، السلاح الخاص بالهند ، سلاح الحب وقوة الحقيقة: الصاتياغرافا [1] . ولقد كانت عظمة غاندي وعبقريته في انه بدعوته هذه الى امته ، كشف لها عن طبيعتها الحقة وقدرتها الخفية .

الصاتياغرافا لفظ اخترعه غاندي في افريقية الجنوبية تمييزاً لمسعاه عن المقاومة الانفعالية وينبغي ان نجتهد كثيراً لاظهار هذا الفرق والمفاضلة ، لان الاوروبيين يدلون على حركة غاندي « بالمقاومة الانفعالية » او «باللامقاومة» وليس اقرب الى الخطأ من هذا الزعم ، فانه ما في الدنيا رجل اشد كراهة للانفعال والتسليم من هذا المجاهد الذي لا يكل ولا يفتر ، وهو نفسه من اجل نماذج « المقاوم البطل » . روح الحركة التي احدثها هي المقاومة الفاعلة ، بقوة الحب والايمان والتضحية — تلك القوة الملتهبة . فهذه القوة المثلثة يعرب عنها غاندي بكلمة « الصاتياغرافا » ليس للجبان اذاً ان يأتي فيعوذ جبنه بظل غاندي . غاندي

(١) اشتقاقاً : صاتيا — مستقيم ، رشيد . اغرافا — التدرب ، السلوك . ويطلقونها خاصةً على انكار الحيف والظلم . ويعرفهـا غاندي (٥ نوفمبر ١٩١٩) بقوله : « الاستمساك بالحقيقة ، قوة الحب او قوة النفس» . ثم في موضع آخر « انتصار الحقيقة بقوة النفس والحب » .

يطرده من جماعته . اذا لم يكن بدٌّ فالعنيف خير من الجبان :

« حيث لاخيار الاَّ بين جبن وعنف فانا ادعو الى العنف (١) . . انا اربي في الرجل الشجاعة المطمئنة الى ان يموت دون ان يَقتل . . ولكن من ليست له هذه الشجاعة اُحب ان يبرع في صنعة القتل واستقبال الموت ، فهذا افضل من عار الفرار من الخطر ، لان الفارّ يجترم عنفاً ذهنياً ، فهو يفر لانه لايشجع على ان يموت وهو يَقتل(٢) . خيرٌ ان اتعرض للعنف الف مرة من ان (يُخصى) شعبٌ بأجمعه (٣) . اولى لي فأولىَ ان أرى الهند تلجأ الى السلاح في الذود عن شرفها ، من ان اقف كالجبان ، شاهداً على عارها . . (٤) »

ثم يستدرك قائلاً :

« ولكني اعلم ان اللاعنف افضل من العنف، وان العفو ادلّ على الرجولة من القصاص . العفو حلية الجندي . ولكن عدم القصاص لايكون عفواً الا حيث تكون القدرة على القصاص، ولا معنى له اذا بدر من عاجز . . . ولا اعتقد ان الهند عاجزة ، فانه لا يقدرماية الف انكليزي على اخافة ثلاثماية مليون من الناس . . ثم انه ليست القوة في الاسباب المادية ، بل هي في الارادة التي لاتقهر . وما كان اللاعنف خضوعاً وانقياداً للمسيء . بل ان اللاعنف يضاد ارادة العاتي بجماع قوة النفس . هكذا يقدر رجل واحد على إعجاز مملكة باسرها حتى يكون علة سقوطها . . »

---

(١) ١١ اغسطس ١٩٢٠ (٢) ٢٠ اكتوبر ١٩٢١

(٣) ٤ اغسطس ١٩٢٠ (٤) ١١ اغسطس ١٦٢٠ من القواعد المتبعة في مدرسة (الصاتياغرافا اشرم) التي اسسها غاندي عدم الخوف « وان تكون النفس في نجوة من مخافة الملوك والامم والطوائف والعائلات والبشر والضواري والموت » . وهذا هو رابع شرط في المقاومة اللاعنيفة كما في هند سواراج (والثلاثة الأُخر هي الطهارة والفقر والحقيقة) .

ولكن بأي ثمن ؟ بألمه . الالم هو الناموس الاعظم ..

« شعار النوع الانساني ... (١) الشرط الملازم للوجود . الحياة تخرج من الموت . لينبت القمح يجب ان يهلك البذار . ما سما امرؤ الا وقد مر على نار الالم .. لا مناص لاحد منه .. وليس الترقي الا في تطهيرك الملك بتحاشيك ايلام الغير .. كلما زاد الالم طهراً كان الترقي اعظم .. (٢)اللاعنف رضاء بالعذاب ... أذنتُ لنفسي بان اقدم للهند ناموس التضحية القديم ، ناموس الالم .. ان « الريشيين » الذين اكتشفوا ناموس اللاعنف وهم في اعظم الشدائد وشر الويلات كانوا اجلّ من نيوتن نبوغاً ومن ولنغتن بأساً وبطولة . فقد اظهروا بطلان الاسلحة التي عرفوها في عصرهم .. ليست ديانة اللاعنف للقديسين فحسب ، بل هي لعامة الناس . ذلك هو ناموس نوعنا كما ان العنف ناموس العجاوات . كرامة الانسان تتطلب ناموساً اسمى : قوة الفكر والروح . اريد الهند على العمل بهذا الناموس ، اريدها على ان تكون شاعرة بسلطانها . ان لها روحاً لا يموت ، ولهذا الروح ان يُعجز كل ما في العالم من قوى مادية (٣) . »

هذا لعمري اسمى ضروب الكبرياء . ولقد شاء حبه الفخور للهند ان تطرح الهند العنف الشائن وان تضحي ذاتها . اللاعنف سبب مجدها وشرفها ، فهي لا تدعه إلاّ سقطت ، ولا يطيق غاندي ان يفكر بذلك :

« اذا جعلت الهند العنف عقيدة فليس ما يحملني على العيش في الهند ، لانها تحرمني اذاً من كل عاطفة كبر . ان وطنيتي تبع لديني ، فانا متعلق بالهند

---

(١) ١ مارس ١٩٢٠ (٢) ١٦ يوليو ١٩٢٠

(٣) ١١ اغسطس ١٩٢٠

تعلق الطفل بثدي امه ، لأني شاعر بأنها تعطيني الغذاء الروحي الذي يعوزني . فاذا منعت عني هذا الغذاء اصبحت كاليتيم · وحينئذ الوذ بقفار الخلايا ، فآوي فيها نفسي الدامية (١) » ·

بيد انه لايشك مطلقاً . فقد كان مؤمناً بالهند اذ عقد العزيمة في فبراير سنة ١٩١٩ على البدء في حملة الصاتياغرافا وهو السلاح الذي جرّب فعله في حركات ١٩١٨ الزراعية .

لا صبغة ثمة لثورة سياسية ، فان غاندي مافتيء راعياً عهد الولاء ، وسيظل كذلك مادام عنده بصيص امل في حفظ انكلترة عهدها . ولقد استمر حتى يناير سنة ١٩٢٠ — وكان هذا مدعاة الى إنحاء غلاة القومية من الهنود عليه باللائمة المرّة (٢) ناصراً مبدأ التعاون مع الامبراطورية البريطانية ، بقوة اليقين الناتج عن

---

(١) ٦ ابريل ١٩٢١

(٢) ردّ غاندي قبل سجنه ببضعة شهور على الانتقادات المرّة التي رموا بها ما سموه سياسته « غير المنطقية » . ولقد ذكر حينئذ بالمساعدة التي أداها لانكلترة في افريقية الجنوبية واثناء الحرب العامة · لكنه لم يجحد في ردّه شيئاً من سيرته الماضية بل قال انه كان يعتقد مخلصاً انه من ابناء الامبراطورية ، وليس من شأنه محاكمة الحكومة ، وان من البديء ان يجعل كل منا نفسه بمنزلة القاضي ازاء حكومته . وقال انه اظهر ، ما استطاع ، ثقة في فطنة الانكليز وحسن نواياهم ، الا ان بلادة ذهن الحكومة سلخت منه تلك الثقة ، فلتتحمل الحكومة تبعة ذلك (١٧ نوفبر ١٩٢١)

خلوص النية ، حتى كان بوسعه ، في هذه السنة الاولى من معارضته لحكومة الهند ، ان يؤكد للورد هنتر ، صادقاً الصدق كله ، ان الصاتياغرافيين اخلص الرعايا الدستوريين للحكومة . ولكن عناد الحكومة وقصر نظرها تعاونا في اكراه هادي الهند الروحاني على تمزيق عهد الولاء الذي كان يعتقد انه موثق به .

وهكذا تبدو الصاتياغرافا بداءة كأنها معارضة دستورية او انذار للحكومة باحترام . ان الحكومة سنت قانوناً غير عادل فالصاتياغرافيون الذين يخضعون عادة للقوانين يخالفون عن عمد وروية القانون الشائن . فاذا لم يكف ذلك لازالة الحيف وارجاع العدل ، فانهم يحتفظون بحقهم في عصيان شرائع اخرى ، بل في الكف عن كل مشاركة وتعامل مع الحكومة . ولكن ما ابعد معنى هذا العصيان عن مفهومه في الغرب ، ولله ما تضمنه من لهجة البطولة الدينية !

لما كان محظوراً على الصاتياغرافيين في معاملة الخصم اتباع سبيل العنف — اذ يجب التسليم بأن الخصم صادق ايضاً : ماتراه انت حقاً يجوز ان يراه هو باطلاً ، وليس في العنف اقناع قط[1] — فقد وجب عليهم ان يقنعوا الخصم بنور الحب الذي يسطع من

(١) بل هو شرّ وأضرّ لانه يحط صاحبه . ويقول غاندي ان من آثار الشدة التي عامل الحلفاء بها المانية صيرورة الحلفاء مماثلين للالمان بعد ان كانوا في بداية الحرب يشهّرون اعمالهم (٩ يونيو ١٩٢٠) .

عقيدتهم وتفانيهم ومن الآلام التي رضوها واحتملوها مختارين [1].
دعاية لا تقاوم: بمثلها استطاع صليب المسيح وقطيعه الضعيف ان يفتحا الامبراطورية الرومانية.

واستهل المهاتما الحركة بجعل يوم ٦ ابريل ١٩١٩ يوم صلاة وصوم (حرتال) [2] للهند بأسرها، يريد بذلك اظهار الحماسة الدينية التي خُص بها هذا الشعب الذي يقرب ذاته ضحية للخيرين الابديين: العدل والحرية — وكان هذا اول اعماله.

وكان من شأن هذا الصنيع انه لامس قرارة وجدان الامة واحدث اثراً لم يسمع بمثله. فان الطبقات كلها اشتركت لاول مرة في إيماءة واحدة. لقد وجدت الهند نفسها.

كادت السكينة يومئذ تكون عامة. وفي دلهي وحدها كانت مناوشات لا شأن لها [3]. فقصدها غاندي ليرشد الشعب الى واجباته. لكن الحكومة اوقفته في الطريق واعادته الى

---

(١) «هنا صلب طبع امرىء فان نار الحب تذيبه. فان لم يذب، فلأن النار ليست بشدة كافية» ٩ مارس ١٩٢٠. وقع الصاتياغرافيون جماعات جماعات العهد على عصيان القوانين الجائرة التي تعينها لجنة الصاتياغرافا، واتباع سبيل الحق لا يحيدون عنها قيد شعرة، والامتناع عن كل عنف نحو الحياة والاشخاص والملكية.

(٢) لفظ هندستاني من اصل اسلامي معناه (الكف عن العمل).

(٣) ومع ذلك فان دلهي اخطأت في تاريخ ذلك اليوم فجعلت حرتالها في ٣٠ مارس.

بمباي . فأثار خبر إمساكه فتناً في البنجاب ادّت في امرتسار الى حوادث نهب وقتل معدودة . ثم بلغ الجنرال « داير » المدينة بجيشه فاحتلها في ١١ ابريل واستتب النظام . وكان الثالث عشر من الشهر يوم عيد كبير عند الهنود ، فتوافدت الجماهير الى الاجتماع في موضع يسمى جاليانوالا باغ ، وهي هادئة تضمّ كثيراً من النساء والاطفال . وكان الجنرال داير في الليلة الفائتة اصدر امراً بمنع كل اجتماع ، ولكن لم يعلم بهذا المنع احد . فجاء الجنرال الى جاليانوالاباغ بمترالیوزاته . وبعد وصول الجند بثلاثين ثانية أرسلت النار دون اخطار او تحذير على هذا الجمهور الاعزل ، فدام اطلاق المدافع عشر دقائق استنفدت فيها الذخيرة . وكان المكان محاطاً بجدران عالية تجعل الفرار من المستحيلات . فقتل من الهنود بين الخمساية والستماية وجرح اكثر من هذا العدد . ولم يعيروا القتلى والجرحى ادنى بال . وأعلن الحكم العسكري في البلاد وسحق البنجاب عهدُ ارهاب . وشوهدت طيارات تقذف بقنابلها على اناس عزّل من السلاح . وسيق اعيان الهنود وكبراؤهم الى المحاكم العسكرية ، وجلدوا وا كرهوا على الزحف على بطونهم ، وأسمعوا الخش الاهانات . . وكأنما عصفت بالحكام الانكليز عاصفة جنون ، وكأنما مبدأ اللاعنف الذي نادت به الهند كان اول نتائجه ايغار صدور الاوروبيين القساة واخراجهم عن رشدهم ! ما كان غاندي ليجهل ذلك . فهو لم يَعدْ امته بأن يقودها الى

النصر في سبيل بيضاء ، بل وعدها سبيلاً دامية . ولم يكن يوم جاليا نوالا باغ إلا يوم العماد . . .

يقول غاندي :

« يجب ان نكون متأهبين لان نشهد برباطة جأش لا قتل الف واحد من رجال ونساء ابرياء بل عدة آلاف ، قبل ان تبلغ الهند المرتبة التي لا تسمو عليها مرتبة في العالم . . على كل واحد منا ان يعد الشنق حادثاً من حوادث الحياة العادية (١) . »

افلحت المراقبة شهوراً معدودة ، في اخفاء فظائع البنجاب كي لا تعرف خارجاً (٢) . ولكن ما انتشر خبرها في الهند الا غمرت البلاد من اقصاها الى اقصاها موجة غيظ طامية ، بل ان انكلترة نفسها انفعلت لتلك الانباء . فعهد بالتحقيق في القضية الى لجنة ترأسها اللورد هنتر . ومقابل ذلك ألف المؤتمر الوطني الهندي لجنة لتقوم بتحقيق خاص . وبديهي ان مصلحة الحكومة (عرف هذا كل ذوي الفطنة من الانكليز) كانت تقضي بأن يضرب بيد من حديد على جناة مذبحة امرتسار . ولم يذهب غاندي بمطالبه الى هذا الحد . فكان يأبى ، باعتداله وحلمه العجيب ، المطالبة بمقاصة الجنرال داير وسائر الضباط الجانين ، مكتفياً بثلبهم وتعييرهم . ذلك انه لا يريد انتقاماً ولا

(١) ٧ ابريل ١٩٢٠

(٢) كذلك اوقف غاندي في ١٨ ابريل ١٩١٩ حركته ، تهدئة للهياج ، ولم يحاول استغلاله كما كان يفعل اي داعية للثورة سواه .

يحمل ضغناً .. « ليس لامرىء ان يحقد على مجنون ، ولكن يجب ان يُجرد المجنون من وسائل الشر والاذى . » كان يوجب اذاً عزل « داير » لا اكثر . لكن حكومة الهند ، قبل ظهور نتيجة التحقيق ، كانت اعجل الى سن قانون تعويض لحماية الموظفين . ولم تكتف باستبقاء الضباط الجناة ، فكافأتهم ايضاً .

وبينما كانت الهند مائجة اذ دهمها امر آخر اعظم خطراً من الاول ، لانه خرقٌ صريح لعهود رسمية كان قطعها رئيس الحكومة الانكليزية ، فأتى على البقية الباقية من الثقة التي يمكن ان تكون في حسن نوايا الاروبيين ، واشعل نار الثورة الكبرى .

ان الحرب الاروبية رمت مسلمي الهند في مأزق وجداني حرج . لقد تنازعهم صدق الولاء للامبراطورية واخلاصهم لرئيسهم الديني . ولم يقدموا على الانحياز الى انكلترة إلا بعد اخذ العهد منها على ان لا تمس سيادة السلطان او الخليفة . وكان رأي جمهور المسلمين ان تبقى للترك ولاياتهم الاروبية وان يحتفظ الخليفة برقابة البلاد المقدسة وبالسيادة على بلاد العرب كما يعرفها علماء الاسلام ، اي بأبوابها : سورية وفلسطين والعراق . وقطع لويد جورج ونائب الملك للهنود عهوداً صريحة بذلك . فلما وضعت الحرب اوزارها لم يبق من هذه العهود شيء . ومنذ صيف ١٩١٩ قلق مسلمو الهند لهذا الصلح الفادح الذي اخذ الحلفاء يعدونه ، فتذمروا ، وكان ذلك فاتحة فتن « الخلافة ».

بدأت الفتنة في ١٧ اكتوبر ١٩١٩ (يوم الخلافة) بتظاهرة سلمية رائعة عقبها بعد شهر (٢٤ نوفمبر) مؤتمر الخلافة في دلهي الذي اشتركت فيه الهند كلها وترأسه غاندي. رأى غاندي بنظره الخاطف ان المسألة الاسلامية خير ذريعة الى ايجاد الوحدة الهندية. وكان هذا الامر في غايـة الخطورة ، لان الانكليز ما فتأوا متكلين على العداوة الاصلية بين الهندوس والمسلمين ، ويتهمهم غاندي بأن الشطر الاعظم منها هم اوجدوه ، او انهم على كل لم يأتوا بحركة لتخفيف تلك العداوة . كان الدينان يستفز كل منهما الآخر بصورة حيوانية . فكان الهندوس اذا مروا امام الجوامع حيث يجب الصمت والسكينة لا يغفلون عن رفع عقيرتهم بالغناء . وكان المسلمون يقابلون هـذا الصنيع بجرح الهندوس في عبادتهم البقرة . فيتبع ذلك فتن ومعارك توغر الصـدور وتسعر نار الشحناء . ولم يكن الشعبان يتعاشران ، ومن المحرمات ان يتناكحوا او يؤاكل بعضهم بعضاً . كانت حكومة الهند نائمة مطمئنة الى هذا الانشقاق الاكيد الابدي ، فايقظها فجأة صوت غاندي في مؤتمر الخلافة داعياً الى الاتحاد . واعلن غاندي بكرم نفس غير مصطنع — وهو لذلك ابلغ فعلاً — ان عـلى الهندوس ان يكونوا والمسلمين يداً واحدة في سبيل االقضية الاسلامية .

« هندوساً كنا ام بارسيين » نصاري ام يهوداً ، اياً كنا » يجب اذا تاقت

نفوسنا الى ان نعيش امة واحدة ان تكون مصلحة الفرد مصلحة الجميع ،
ولا عبرة الا لعدل مطالبه . »

وكان دم المسلمين قد امتزج بدم الهندوس في مذبحة امرتسار، فيجب الان ان يُختم صك الحلف بين هؤلاء واولئك: حلفٌ بلا شروط. كان المسلمون اعظم عناصر الشعب الهندي شجاعة، فكانوا اول من قرر في مؤتمر الخلافة هذا، رفض كل تعاون مع الحكومة اذا لم تجب مطالبهم، فصدق غاندي قرارهم، لكنه ظل محافظاً على روح الاعتدال الذي عُرف عنه، فرد اقتراح مقاطعة البضائع الانكليزية لانه كان يرى في هذه المقاطعة عاطفة انتقام ومظهر ضعف على السواء.

وفي مؤتمر الخلافة الثاني المعقود بأمرتسار في آخر دسمبر ١٩١٩ تقرر ايفاد وفد الى اروبة وأُرسل الى نائب الملك انذار فيما اذا وقّع صلح مضاد لارادة الهند. ونشر المؤتمر الثالث المنعقد ببمباي في ٢ فبراير ١٩٢٠ بياناً اسلامياً يثلب فيه السياسة الانكليزية وينذر بالعاصفة

كان غاندي يرى ان العاصفة آتية لا ريب فيها. ولم يكن ليرجوها قط، بل انه بذل جهده لامساكها

ويلوح ان القوم في انكلترة فطنوا اخيراً للخطر، فعملوا على منعه بأجابة بعض المطالب بعد فوات الاوان. وجاء قانون الاصلاح الهندي مبنياً على بيانات مونتاغو — شلمسفورد يمنح

الامة الهندية سلطات ومسئوليات في الحكومة المركزية وفي ادارة المقاطعات اوسع نطاقاً من ذي قبل . وصادق عليه الملك في بيان ٢٤ دسمبر ١٩١٩ داعيـاً الشعب والموظفين الهنود الى انفاذه ، وسائلًا نائب الملك اصدار العفو عن المحكومين السياسيين. وكان غاندي وما زال ينفعل بمظاهر الكرم ، فابدى امتنانه ورأى في هذه التدابير تعهداً ضمنياً تقطعه انكلترة على نفسها بأن تعدل في قضية الهند، فنصح مواطنيه بقبول هذه الاصلاحات. لقد حكم بأنها ناقصة ، لكنه رأى انها قد تكون فاتحة انتصارات مشروعة اوسع نطاقاً وانه يجب ان نعتنقها صادقي النية . وبعد مناقشات عنيفة فاز رأيه في المؤتمر الوطني الهندي

بيد ان هذا الامل الاخير خاب ايضاً، خيبة الآمال الاولى. فلم يعبأ نائب الملك بالنداء الذي وُجه الى حلمه . وفُتحت السجون ، لكن لتنفيذ احكام الاعدام، فهاجت الهند وماجت واصبح من البديهي ان وعود الاصلاح ستظل برقاً خلباً

وفي هذا الحين (١٤ مايو ١٩٢٠) علمت الهند بشروط الصلح الفادحة التي اكرهت تركيا على قبولها . وجاءت رسالة من نائب الملك يقرُّ فيها بأن هذه الشروط ستكون ولاريب شديدة علي قلوب المسلمين ، لكنه يدعوهم الى الصبر والتسليم

واخيراً في تلك الايام ، نشر البيان الرسمى الذي وضعته لجنة التحقيق عن مذابح امرتسار وكان قد تأخر نشره ، فكملت

به سلسلة العوامل على اثارة نفوس الهنود .

وهكذا قضي الامر وقطعت كل العرى .

قررت لجنة الخلافة المنعقدة ببمباي في ٢٨ مايو ١٩٢٠ اتخاذ خطة اللامعاونة التي اقترحها غاندي ، واقرّها بالاجماع المؤتمر الهندوسي الاسلامي المنعقد في الله اباد ، في ٣٠ يونيو ١٩٢٠ ممهلاً نائب الملك شهراً واحداً لاجابة مطالب الانذار

وكتب غاندي نفسه الى نائب الملك معلناً عن خطة اللامعاونة وشارحاً الدواعي التي اضطرته الى التوسل بها . اما هذه الدواعي التي يذكرها فجديرة بالنظر ، لانه يشهد الملأ ، حتى في تلك البرهة الاخيرة ، على رغبته الاكيدة في عدم قطع العرى التي تصل بين الهند وانكلترة ، وامله الوطيد في ان يقودها الى التوبة بهذا العصيان المشروع ، قال :

« اصبحت بين امرين لا ثالث لهما . اما ان انفصل عن انكلترة ، واما اذا كنت لا ازال مسلماً بأفضلية الدستور البريطاني على سائر الدساتير — ان اضطر الحكومة الى الحكم بالعدل في قضيتنا . فاما وانا لا ازال مسلماً بأفضلية الدستور البريطاني ، فقد نصحت اذاً بالعصيان . »

وكذلك نرى اي وطني جليل اعمت الكبرياء الامبراطورية البريطانية ، فلم تدر كيف تستبقيه لنفسها .

٢

في ٢٨ يوليو سنة ١٩٢٠ انبأ غاندي بني قومه ان اللاممعاونة تُعلن في اول اغسطس ، وقضى ان يكون ٣١ يوليو «حرتالاً» دينياً يستعدّ فيه الهنود بالصوم والصلوات . هو لا يخشى سخط الحكومة ، ولكنه يخشى هياج الشعب . لذلك اتخذ اسباب الحيطة كي يسود النظام والسكينة صفوف الهنود :

« ان اللاممعاونة الشاملة تتطلب تنظيماً شاملاً . ان الفوضى تنشأ عن الغضب . يجب ان لا يكون للعنف اثر مطلقاً . كل عنف يرجع بالقضية القهقرى ويبدد الانفس البريئة على غير طائل . أيُراعَ النظام اولاً ! »

وخطة اللاممعاونة هذه كان غاندي ولجنة اللاممعاونة قد سنّاها في الشهرين الماضيين ، فقرر :

اولاً : طرح الالقاب والرتب الشرفية جميعاً .

ثانياً : عدم الاكتتاب في قروض الحكومة .

ثالثاً : اضراب المحاكم ورجال القانون ، والفصل في الخصومات بالتحكيم الاهلي .

رابعاً : مقاطعة الطلاب والأسر المدارس الاميرية .

خامساً : مقاطعة مجالس الاصلاحات الدستورية .

سادساً : عدم الاشتراك في حفلات الحكومة وفي الوظائف الحكومية جميعاً .

سابعاً : رفض كل منصب مدني او عسكري .

ثامناً : الدعوة الى السواد شي[1] اعني : بعد القسم السلبي من البرنامج القسم الانشائي ، او النظام الجديد الذي ينبغي ان تقوم على اساسه الهند الجديدة . وسنفصل ذلك فيما بعد .

لم تكن هذه الا المرحلة الاولى . ويجب التنبيه الى الحكمة والأناة (الغريبتين على افهام ثوريي اروبة) اللتين اتصف بهما هذا الرجل الذي يطلق تلك الماكنة الضخمة — الثورة الهندية ولكنه يمسكها في البداية ، على الفرضة الاولى . لسنا هنا ازاء « عصيان مدني » . فهذا قد عرفه غاندي ودرسه في تصانيف « طورو » الذي يستشهد به الزعيم الهندي في مقالاته . وهو يعنى بتمييزه عن اللامعاونة العناية كلها . ليس العصيان المدني رفض الطاعة فحسب ، بل هو كذلك خرقٌ للقوانين . « إنه تجاوزٌ لا يتسنى اتيانه والنجاح فيه إلا من الخاصة ، على حين ان اللامعاونة قد تكون ، بل يجب ان تكون عمل السواد الاعظم . » يريد غاندي اعداد الشعب الهندي للعصيان ، تدريجاً لا طفرة ، علماً منه بأن الشعب غير تام الاهبة ، وليس من الحكمة القاء حبله

---

(١) لغة : سوا : ذات ، دشي — وطن . واصطلاحاً : الاستقلال الوطني . ويستعمل دعاة اللامعاونة هذا اللفظ خاصة بمعنى الاستقلال الاقتصادي على الاغلب . ولكن سنرى بعدُ كيف استخرج صحابة غاندي ومريدوه من هذه الكلمة الجامعة « انجيلا اجتماعياً » .

على غاربه ، قبل التيقن من انه اكتسب إمرة النفس . لذلك لم يكن في هذا البرنامج الاول لللامعاونة ، ذكرٌ لرفض الضرائب : ان غاندي ينتظر الساعة .

وفي اول اغسطس ١٩٢٠ استهلّ الحركة برسالة مشهورة الى نائب الملك يعيد بها اوسمته ورتبه الشرفية قائلًا :

« لست برادٍّ ، إلاّ أَسِفاً ، الوسام الذهبي « قيصري هند » الذي نلته جزاء صنيع انساني في افريقية الجنوبية ، ووسام الزولو الحربي الذي نلته جزاء خدماتي ضابطاً لفرقة نقالة الجرحى المؤلفة من متطوعة الهنود سنة ١٩١٦ ، ووسام الحرب البويرية الذي نلته جزاء خدماتي معاوناً لقيّم فرقة نقالة الجرحى الهندية سنة ١٨٩٩ – ١٩٠٠ » . وبعد التذكير بحوادث البنجاب وبالحوادث التي نشأت عنها حركة الخلافة يقول : « ولكن لايسعني ان احفظ في صدري عاطفة حب واحترام لحكومة موصومة بهذه الرذائل والمظالم . . يجب ان نقودها الى التوبة . . لذلك اوصيت باللامعاونة التي ننفصل بها عن الحكومة ، ونضطرها من غير عنف . » ويعرب غاندي عن امله في ان يرفع نائب الملك عن الهند ظلامتها باستشارة زعماء الامة المعهودين .

واقتدى الناس بغاندي دون تردد . فاستقال مئات من القضاة ، وغادر الكليات آلاف من الطلاب : هُجرت المحاكم ، وفَرغت المدارس . ثم صدّق مؤتمر « جميع الهند » المنعقد في اول

سبتمبر قرارات غاندي باغلبية عظيمة . وتنقل غاندي وصديقه مولانا شوكت علي في انحاء القطر الهندي بين هتاف الاهلين .

لم يظهر غاندي أملك لزمام الملايين من الخلق واعظم سؤدداً منه في هذه السنة الاولى من جهاده . كان عليه ان يعقل العنف الذي يريد ان يثب . وكان اكثر ما يكره عنف الغوغاء ، ولا يجد من الكلام القاسي مايكفي في ذم المبقراطية او حكم الرعاع الذي يعتقد انه شرّ الاخطار على الهند . هو يكره الحرب ، ولكنه يؤثرها على انطلاق « وحشية الغوغاء » من قيدها : « اذا قُدّر للهند ان تتذرع بالعنف ، فليكن العنف المنظم ، اي الحرب . اما الرعاع فلا ، بحال من الاحوال [1] ! » وكان ينفر حتى من التظاهرات البهيجة اللجبة ، ولكن غير المنظمة ، التي لايعلم أحدٌ هل تخرج منها الفتنة وافعال لااسم لها . « يجب ان نخرج النظام من هذه الفوضى . يجب ان نستبدل بالغوغاء شريعة الامة . » ان هذا الصوفيّ الثاقب النظر (الذي لاينحط روحه العمليّ الصحيح عمّا اتصف به كبار متصوفينا الاروبيين الذين سيطروا على النفوس واسسوا انظمة الاديرة الكبرى) قد سنّ قواعد دقيقة لحصر التظاهرات العامة في اقنية معينة كي لا يطمو سيلها ، قال :

« خطأنا الفاحش هو اننا اهملنا الموسيقى . إن الموسيقى تعني الايقاع

(١) ٨ سبتمبر ١٩٢٠

والنظام . بيد انها – يا للاسف – ظلت في الهند محصورة بين نفر قليل ، فلم تعمّ ، في زمن ، طبقات الامة . . . ينبغي ان نعهد الى جوقات ان تنشد الاناشيد الوطنية . ليحضر كبار الموسيقيين كل مؤتمر يعقد ، وليعلموا موسيقى الجماهير . فليس اهون من تدريب العامة الذين لا ارادة لهم ثابتة . . . »

ويلي ذلك جملة اوامر :

« (١) لا يُقبل في التظاهرات الكبرى متطوعة جدد غير مجربين . يُجعل في المقدمة اكثرهم تجربة . (٢) يُعطى كل متطوع كتيباً جامعاً كل التعليمات . (٣) يتفق على صفرات التنادي بين المتطوعة . (٤) يُطلب من الجمهور ان يطيع المتطوعة دون جدال . (٥) تُعيَّن الصرخات الوطنية ، ومتى يجب ان يُهتف بها ولا يُغضى عن ادنى خرق للقاعدة . (٦) يُحمل الجماهير على الوقوف في جانبي الطريق كي لا يمنعوا سير العجلات ، و يُحظر عليهم دخول المحطات ، ولا يؤذن لهم باستصحاب الاولاد الصغار الى امكنة التجمهر وهلم جرا . »

وبكلمة موجزة ان غاندي ينصب نفسه مدير جوقة موسيقية « اوركسترة » في هذا الاوقيانوس البشري .

« ان اشقّ عمل على الامة هو تنظيم تظاهراتها . »

لا تعمد الجماعات الى العنف إلاّ في نوبات متقطعة ، بل هي لا تعلم ماذا تريد ، فتسلم نفسها لاندفاعات مفاجئة ، ووثبات متعاكسة . بيد ان نفراً من صفوة الهنود يريدون العنف عامدين ، فهم لا يفهمون فكر غاندي ولا اثره السياسي بنوع خاص . ولقد تلقى غاندي رسائل غُفلاً يسألونه فيها ان لا يعارض في استعمال العنف والشدة ، او يظهرون دون حياء — وهذه شر

الاهانات — ثقة في ان اقواله ليست الا ستاراً يخدع به العدو، فهم يلحون عليه بأن يومي، اباءة القتال. لكن غاندي اجاب بقوة، وجادل جدالاً عنيفاً، وردّ بمقالات حسنة جداً على دعاة «مذهب السيف». هو ينكر ان الكتب الهندوسية او القرآن تأمر بالعنف، لأن العنف ليس بدستور دين من الاديان. ان المسيح امير المقاومة الانفعالية. ان البغقاد جيتا لا تدعو الى العنف، بل الى انجاز الواجب، ولو كان في ذلك الهلاك [1]. «لم يؤت المرء قدرة على ان يخلق، فليس له اذاً حق بأن يُعدم.» يجب ان نحب حتى اولئك الذين يسيئون عملاً، ولا يعني هذا وجوب اباحة الشر. ان غاندي قد يسهر على الجنرال داير اذا مسه مرض، ولكن «ان عاش ابني عيشة خزي، فأن حبي يقضي عليّ بأن احرمه عضدي، ولو كان في ذلك هلاكه.» لا يحق لنا ان نقهر الشرير بالقوة، ولكن يجب علينا ان نصدهُ بالافتراق عنه مهما كلف الامر. فاذا تاب العدو كان فرضاً علينا ان نفتح له ذراعينا [2].

وبينما كان غاندي آخذاً في زجر دعاة العنف، كان في الوقت ذاته يحث المترددين، ويطمن نفوس المتراجعين امام

(١) هذا، على الاقل، تأويل غاندي. ولكن هل يجرأ اوربيّ على ان يزعم ان في البغفادجيتا رضاء بالعنف وطمأنينة اليه، سواء في حالة اتيانه ام في حالة الصبر عليه ؟

(٢) ٢٥ اغسطس ١٩٢٠

العمل المباشر :

« لم يتم شيء على وجه الارض دون عمل مباشر . اني طرحت لفظي « المقاومة الانفعالية » جانباً لعدم كفايتهما . . ان العمل المباشر وحده هو الذي هدى الجنرال سمطس في افريقية الجنوبيـة سواء السبيل . ما المزيج الأمثل الذي قدر المسيح وبوذا على تحقيقه ؟ مزيج القوة والحلم . لقد اشعل بوذا حرباً في معسكر عدوه وجعل الكهنوت المتغطرس يسجد امامه . لقد طرد المسيح الباعة من الهيكل وجلد المنافقين والادعياء . ذلك هو العمل المباشر بأشد مظاهره . ولكن وراء افعالهما في الوقت ذاته حلماً لاينفد(١) »

وخاطب غاندي ايضاً قلوب الانكليز وعقولهم (٢) . وهو يدعوهم « اصدقاءه الاعزة » ويذكرهم بأنه كان صاحباً اميناً مدة ثلاثين عاماً ، ويسألهم ان يقضوا بالعدل على خيانة حكومتهم وغدرها . « ان غدرها قد حطم ثقتي فيها . ولكني مازلت واثقاً في مروّة الانكليز . . ان الهند لا تستطيع ان تقاومكم اليوم الا بالشجاعة المعنوية ، فهي باللامعاونة تضحي نفسها . . اريد ان املك قلوبكم بآلامي . . »

ان حملته التي استمرت اربعة شهور او خمسة لم يكن غايتها شلّ الحكومة الانكليزية بسياسة اللامعاونة فحسب ، بل انشاء هند جديدة قادرة على كفاية نفسها وعلى استحداث حياة مستقلة مادة ومعنى . كان البند الاول ضمان الاستقلال الاقتصادي لها ،

---

(١) ١٢ مايو ١٩٢٠

(٤) « الى انكليز الهند جميعاً » ٢٧ اكتوبر ١٩٢٠

وهو ما يدعوه غاندي بالسوداشي (بل ان للسوداشي معاني مختلفة ، لكن هذا اقربها وتغلب عليه الصفة العملية) .

وبديهي اذاً أنه يجب على الهند ان تعرف الحرمان من كثير من الطيبات المادية ، وان توطن ذاتها دون شكوى على كثير من انواع الضيق وشظف العيش . لكنها رياضة نافعة وعلاج واجب ، فيهما لصحة الجنس وللشريعة الاخلاقية على السواء ، نصيب من الفائدة . ينبغي اولاً ان تُجتث من الهند « بلية المسكر » وان تؤلف جمعيات لمقاومته ، وان تُقاطع الخمور الاوروبية ، وان يُحمل الباعة على طرح الرُخَص ببيعها (١) . سمعت الهند نداء المهاتا ، فطمت على البلاد موجة كراهة للمسكر ، حتى اضطر غاندي لأن يحول بين العامة وبين ما هموا به من اقفال المخازن جبراً وتقويض بنيانها ، لانه « لا يجوز جعل الناس بررةً اطهاراً ، عنوة وجبراً » .

ولكن اذا كان من السهل انقاذ الهند من وباء المسكر ، فانه يصعب جداً ضمان وسائل الحياة لها . من اين غذاؤها ، ومن

(١) ٢٨ ابريل ١٩٢٠ و ٨ يونيو و ١ سبتمبر ١٩٢١ . في « خطاب الى البارسيين » وهم من كبار التجار ، يستحلفهم غاندي ان يقفلوا مخازن المسكرات (٢٣ مارس ١٩٢١) . وفي « خطاب الى المعتدلين » يسألهم ، وان لم يكونوا متفقين واياه على سائر مواد البرنامج ، ان يعضدوا جهوده في هذه السبيل . وهو في الوقت نفسه يناوىء تجارة المخدرات بانواعها ومعاشش الافيون .

اين لباسها ، اذا طرحت المصنوعات الاوروبية جانباً ؟ ان «وصفة» غاندي لعلاج هذا الداء غاية في البساطة ، تتجلى فيها نزعات فكره الممثل للقرون الوسطى : يريد ان ترجع الاسر الهندية جميعاً الى صناعة المغزل البيتية القديمة (الشرقا) .

لقد سخروا من هذا الحل الفطري للمشكلة الاجتماعية[1] . ولكن ينبغي اولاً ان نعرف احوال الهند الخاصة ، وان ندرك المعنى الصحيح الذي يعنيه غاندي بالشرقا . فهو لم يزعم قط ان الغزل وسيلة كافية لحياة الناس ، اللهم الا للفقراء المدقعين ، بل انها صناعة ظهيرة للزراعة حينما تكون الزراعة واقفة . وليست هذه المشكلة من قبيل النظريات ، بل هي مُمِضَّة موجعة يجب التعجيل في حلها : ان ثمانين في المائة من سكان الهند فلاحون لا عمل لهم خلال اربعة اشهر من السنة ، وعُشرَ الأهلين جياع على الاغلب ، بينما الطبقة الوسطى لا تجد كفايتها من الغذاء . وانكلترة لم تتخذ سبباً الى معالجة هذه الحالة ، بل زادتها سوءً . فان الشركات الانكليزية قضت على الصناعات الاهلية قضاءً مبرماً ، وامتصت موارد الثروة الهندية جميعاً ، وهي تسلب

(١) عرف غاندي ان الناس سيضحكون منه ، لكنه يقول : هل أخلت الابرة مكانها لماكنة الخياطة ، واليد للآلة الكاتبة ؟ ان المغزل لم يخسر فائدته الاولى ، وهو اليوم من الضرورات الوطنية ، بل هو المورد الوحيد الميسور لملايين من خماص البطون (٢١ يوليو ١٩٢٠)

الهنود ستين مليون روبية كل عام . ان الهند التي تنتج كل سنة كفايتها من القطن ، تصدره في ملايين البالات الى اليابان واللانكشير ، كي تستورده بعد حين نسيجاً مصنوعاً . يجب عليها بالبداهة ان تعرف كيف تستغني عن خدمات الاجانب الغابنة ، وان تبادر الى تنظيم مصانعها الاهلية ، وان لا تتوان عن ايجاد عمل ومعاش لكل هندي . ولا وسيلة اقرب تناولاً واحسن توفيراً من صناعة الكوخ ، الصناعة الهندية القديمة ، نعني الغزل والنسج . ليس القصد بذلك ان يُصرف الفلاحون العاملون الى هذه الصناعة ، بل اولاً المبطلون الذين لاشغل لهم ، وثانياً النساء والاولاد ، وبالنهاية كل الهنود في ساعات فراغهم . وعلى هذا قضى غاندي : (١) بأن يقاطع النسيج الاجنبي . (٢) بأن يرجع الهنود الى صناعة الغزل وينشروا تعليمها وهي غاية في السهولة . (٣) بأن يأخذوا على انفسهم عهداً ان لايلبسوا من الاقمشة الا ما كان مغزولاً ومنسوجاً على تلك الكيفية . ووقف جماع نفسه على هذه الدعوة بحمية لا تخمد . وشاء ان يصبح الغزل فريضة على الهند باسرها [١] وان يُعلم في المدارس وان يؤدي فقراء الطلاب ثمن دراستهم بساعات على المغزل ، وان يخصه كلّ هندي وهندية بساعة واحدة كل يوم لعمل الخير . ولقد رأينا غاندي يهتم بدقائق الامور ، ويأتي بتعاليم فنية في

(١) ٢ فبراير ١٩٢١

موضوع القطن والغزل واعمال النسج المختلفة ، ويقدم الارشادات العملية للحاكة والشارين وارباب الاسر والطلاب ، ويبرهن بالارقام أن في وسع كل امرىء ان يفتح برأس مال زهيد حانوت « سوادشي » (لبيع محاصيل العمل الهندي) وان يربح عشرة في المائة . وهو من ابلغ الشعراء حينما يشيد بذكر موسيقى المغزل[1] — اقدم موسيقى هندية — التي كان يستطيب نغماتها « كبير » الشاعر الحائك ، و « اوران زاب » الامبراطور العظيم الذي كانت قلنسوته صنع يديه . . وهكذا وفق غاندي الى اذكاء نار الحماسة في صدور القوم ، فعكفت بنات الاسر الكريمة في بمباي على المغزل ، واخذ الهندوسيات والمسلمات على انفسهن عهداً ان يلبسن إلاّ انسجة وطنية . وعمّ زيُّ « الخضار » او « الخادي » الذي اقرّ رابندرانات تاغور نفسه بجودته ، وراجت سوقه ، حتى انه أرسل من بلوشستان وعدن في طلبه .

ولكن الحماسة جاوزت الحد قليلاً في مقاطعة النسائج الاجنبية حتى ان نفس غاندي المعروف بالرشد والحكمة خرج من اعتداله فأمر باحراقها على انها رمز العبودة . وفي اغسطس ١٩٢١ أقيمت ببمباي في ساحة الامارة — كما في زمن سافونارولا — محارق عظيمة لالتهام الاقمشة النفيسة مما تقتنيه الاسر الكبيرة ، والاهلون حولها في فرح لجب . فكتب س . ف . اندريوس

(١) ٢١ يوليو ١٩٢٠

صديق تاغور ومن كرام انكليز الهند ، كتاباً الى غاندي وكان به معجباً ، يعرب عن اسفه لاحراق تلك الاقمشة اذ الافضل ان يتصدق بها على الفقراء ، ويلوم على ايقاظ غرائز السؤ في العامة ، ويسفه هذا التعصب القومي الذي هو احد مظاهر العنف ، قائلاً انه لا يطيق ان يجعل قومٌ الهدم ديناً ، لان اتلاف ثمر العمل الانساني جريمة . وكان اندريوس قد اعتنق مبادىء غاندي الاصلاحية ولبس « الخضار » لكنه يتردد الآن في لبسه : ان مشهد تلك المحارق جرح ايمانه بالمهاتما . فنشر غاندي رسالة اندريوس واجاب عليها برفق ، منفعلاً لبثّ هذه النفس القلقة الحزينة ، واعلن انه غير نادم ، وانه لا يحمل ضغناً على امة من الامم ، وانه لا يطلب اتلاف كل متاع اجنبي بل الامتعة التي ظهر ضررها . ان المصانع الانكليزية خربت ملايين من الهنود ، حتى ان كثيراً منهم انحطوا الى دركات « الپاريا » والجنود المرتزقة ، واصبحت نساؤهم عواهر . فلا يرتدي امرؤ هذه الاقمشة الجانية إلا كان آثماً . ان الهند محمولة ببواعث جمة على بغض مستغليها من الانكليز ، لكن غاندي يحوّل غيظها عن الاشخاص الى الاشياء . وليس الانكليز الذي باعوا هذه الاقمشة وحدهم بمذنبين ، فأن لهم شركاء هم الهنود الذين اشتروها . واذاً نحن لا نحرق عن حقد وضغينة ، بل ندامة واستغفاراً . تلك عملية جراحية واجبة . كذلك لا يجمل بنا ان نهب الفقراء هذه الالبسة النجسة ، فأن

لهؤلاء ايضاً كرامة .

ليس بكاف اطلاق الحياة المادية من رقّ الاجنبي ، فيجب ان نطلق الروح ايضاً . لهذا شاء غاندي ان تطرح امته نير الثقافة الاروبية عن كاهلها ، وكان من اجلّ جهـوده وضعه الاسس لتربية هندية حقة .

مما ابقى عليه الزمن في الهند بضع مدارس وجامعات لا تزال وهي في وصاية الانكليز ، حافظة جذوات من الثقافة الاسيوية العتيقة . « عليكره » الجامعة الاسلامية الهندية مركز الثقافة الاسلامية في الهند منذ خمس واربعين سنة . وكلية « خلصا » مركز الثقافة السيخية . وللهندوس جامعة بنارس . لكن هذه المعاهد العلمية المتأخرة من بعض الوجوه كانت تابعة للحكومة التي تمدّها بالمال . وكان غاندي يودّ لو يهدمها ، فيعيض الهند عنها بمصابيح ازهى نوراً . وقد افتتح في نوفمبر ١٩٢٠ جامعة غوجرات الوطنية في احمداباد وهي مشيدة على اسس الوحدة الهندية ، وركناها الدينيان هما « دارما » الهندوس و« اسلام » المحمديين . وهي تعمل على حفظ اللغات الهندية لتكون ينابيع الحيـاة القومية والنهضة الوطنية . ويرى غاندي ورأيـه الصواب (١) — ولاقواله فائدة لنا ايضاً — « ان دراسة منظمة للثقافات الاسيوية ليست بأقل وجوباً ، في اكتساب التربية الكاملة ،

(١) ١٧ نوفمبر ١٩٢٠

من دراسة علوم الغرب . ينبغي ان نبحث عما في السنسكريتية والعربية ، والفارسية والپالية والماجادية من كنوز ثمينة ، لنظفر بأسرار السؤدد الوطني . » ولا يعني هذا اعادة ماقيل او عمل في الازمنة الغابرة ، بل انه « يجب ان نبني ثقافة جديدة على ثقافات الماضي التي نمت وأثرت باختبارات العصور . وتكون هذه الثقافة « مركّباً » من مختلف الحضارات التي فعلت في الهند وانفعلت بروح الاقليم . ولكن لن يُصنع هذا « المركّب » على النمط الامريكي ، لان ثقافة مسيطرة في امريكة استغرقت كل ما عداها وقضت عليه . فلكل ثقافة حقها ومكانتها . ان القصد هو التأليف والوفاق لا اصطناع وحدةٍ عنوةً وجبراً . » فاذاً على الطلاب جميعاً ان يعرفوا ديانات الهند جميعاً : الهندوس يألفون القرآن كما ان المسلمين يألفون الشاسترا . ولا تحرّم الجامعة الوطنية إلا روح التحريم . فهي لا تسلّم بوجود « انجاس » في الجنس البشري كله . واللغة الهندوسية اجبارية لانها اللغة القومية الحقة ممزوجةً بالسنسكريتية والهندية والاردوية المستعجمة(١) .

(١) ليس محظوراً تدريس الانكليزية او اية لغة اروبية اخرى ، ولكنها لا تدرس الا في الصنوف العالية . اما اللغات الهندية فهي على الضد موضع العناية في كل درجات الدراسة . ويحلم غاندي بحالة علوية قد يبلغها هذا الوجود ، تكون فيها تلك الفروق جميعاً باقية في الوحدة ، ولكن ليس بصفتها اجزاء ، بل « كالاوجه العديدة لجوهرة واحدة » يوليو ١٩٢٠ .

يتلقى المتأدبون تعليماً صناعياً كما يتلقى غير المتأدبين تعليماً ادبياً ، كي يقل مابين الطبقات الاجتماعيــة من الفروق . اما الروح الاستقلالي فلن يصان بالدراسة وحدها، بل كذلك بتربية مبنية على المواهب والميول . يريد غاندي — على نقيض التربية الاروبية التي تبخس العمل اليدوي حقه ، موفرة عنايتها على انماء الدماغ — ادخال العمل اليدوي في المدرسة ابتداء بصنوف الاطفال . من الحسن ان يؤدي الولد ثمن دراسته غزلاً ، ليتعوّد منذ نعومة اظفاره على الحياة الاستقلالية بكسب معاشه . اما تربية القلب التي تهملها اروبة الاهمال كله ، فيجب استحداثهـا اصلاً . وقبل ان نوجد طلاباً ينبغي ان نوجد مربين .

تلك هي الغاية من انشاء معاهد المعلمين العليا التي يفكر غاندي — على مايظهر — في جعلها القواعد الراسخة التي يقوم عليها صرح التربية الجديدة . والاصح ان لا نسمي تلك المعاهد مدارس ، فهي اديرة حقيقية تتجمع فيها انوار الهند المقدسة لتُنشر فيما بعد ، على مثال الاديرة الكبرى التي يؤسسها في الغرب اتباع القديس بنوا ، روّاد الانفس والارضين .

وفي ايدينا الانظمة التي سنّها غاندي لمعهد « الصاتياغرا اشرم » في احمداباد ، وهذا المعهد احبُّ ابنائه اليه . وهي انظمة تتعلق بالمدرسين باشدّ من علاقتها بالطلاب ، وتربطهم بمثل عهود الاديرة . لكن عهود الاديرة ، على مرّ الزمان ، لا يبقى لها إلا مزية

نظام سلبي ، لكنها في « الضاتياغرا اشرم » خفاقة ابداً بروح التضحية والمحبة الخالصة الذي يملأ صدور القديسين والاولياء .

يُطلب من المديرين العمل بالقواعد الآتية :

١ — عهد الحقيقة : ليس بكافٍ ان لا تكذب («لاينبغي ان تتذرع بكذب قط ولو كان في مصلحة الوطن ») فأن الحقيقة قد تضطرك ايضاً الى معارضة ابويك وذويك الاكبر منك سناً.

٢ — عهد « الاهمسا » (لاتقتل) : ليس بكافٍ ان لاتزهق روح مخلوق من المخلوقات ، بل يجب ايضاً ان لاتجرح حتى اولئك الذين تعتقد انهم ظالمون . يجب ان لاتأخذك سورة الغضب عليهم ، بل يجب ان تحبهم . ناوىء الاستبداد ولكن لا تسيء الى المستبد: اغلبه بالمحبة . إعصه ولو كان في عصيانه الموت .

٣ — عهد العزوبة الذي بدونه يتعذر العمل بالقاعدتين الاولى والثانية : ليس بكافٍ ان تجتنب الفسق ، بل يجب ان تكون مسيطراً على شهواتك الحيوانية دائماً ، لا عملاً فحسب ، بل فكراً ونيةً ايضاً . فاذا كنت متزوجاً وجب عليك أن تعتبر امرأتك صديقاً مدى العمر وأن تكون لك بها علاقات طهرٍ تام .

٤ — رقابة الفم : يجب ان تنظم طعمتك وان تطهرها . يجب ان تعفّ عن الاغذية غير الضرورية شيئاً فشيئاً .

٥ — لا تسرق : لا يُقصد بهذا ما هو ملك لغيرك ، فان « من السرقة ايضاً ان تستعمل من الاشياء ما لاتحتاج اليه فعلاً ».

إن الطبيعة تخرج لنا كل يوم ما يكفي حاجاتنا اليومية ، لا ما يزيد عنها .

٦ — لا تقتن متاعاً : ليس بكافٍ ان لا تقتني شيئاً ، بل يجب ان لا تحفظ لنفسك إلاّ ما كان ضرورياً لحاجاتك اليومية . ينبغي ان نطرح دائماً مايزيد ، وان نجعل حياتنا غاية في البساطة .

ثم يدعم غاندي تلك العهود الاساسية بهاتين القاعدتين :

١ — السوداشي : لا تستعمل الامتعة التي قد يكون فيها سبيل الى الغش . وينشأ عن هذه الوصية تحريم الامتعة المصنوعة في البلاد الاجنبية لانها ثمرة استغلال البؤس وآلام الشعب العامل في اروبة . فالسلع الاجنبية حرام اذاً على مُتّبع الاهمسا . ومن هنا ضرورة الثياب المصنوعة في الهند نفسها .

٢ — عدم الخوف : لان الذي يخاف لا يقدر على العمل بالوصايا الآنفة . ينبغي ان تكون بنجوة من مخافة الملوك والامم والعائلة والبشر والضواري والموت . إن الذي لا يخاف يحمي نفسه « بقوة الحق » او « بقوة النفس » .

وبعد ان انجز غاندي بناء الاخلاق على هذا الاساس المكين تكلم بايجاز عن الوصايا الاخرى المتعلقة بالتربية ، وارعاها للنظر هاتان الوصيتان : يجب ان يكون المعلمون قدوة بالعمل الجسدي (سيما زراعة الارض) ويجب ان يتعلّموا اهمّ اللغات الهندية .

اما الاولاد فاذا دخلوا الاشرم — يُقبلون منذ الرابعة من

عمرهم — فقداصبحوا مقيَّدين حتى يخرجوا منه (تستغرق درجات الدراسة نحو عشرة اعوام) . يُفصلون عن عائلاتهم ولا يكون لوالديهم سلطان عليهم . لا يزور الطلاب آباءهم . ثيابهم بسيطة وطعامهم بسيط ، نباتيّ صرف . ليس من ايام عطلة بالمعنى المعروف ولكنهم يُعطون يوماً ونصف يوم كل اسبوع لقضاء اعمالهم الخاصة، وثلاثة اشهر كل سنة للقيام برحلات في انحاء الهند مشياً على الاقدام . الهندية ولهجة دراڤيدية واحدة هما اللغتان الاجباريتان لجميع الطلاب . عليهم ايضاً ان يتعلموا الانكليزية بصفتها لغة ثانوية ، وحروف خمس لغات هندية (الاردو والبنغالي والتاميل والتلوغو والدڤنقاري) . ويُدرّسون في لهجاتهم الخاصة التاريخ والجغرافيا والرياضيات والعلوم الاقتصادية والسنسكريتية . وفي الوقت عينه يزاولون الزراعة والنسج اليدوي . كذلك نحن في غنىً عن القول ان الروح الديني يشمل هذا التعليم بتمامه . ومتى انتهت الدراسة خُيّر هؤلاء الفتيان بين خطتين : إما ان يبرموا عهوداً على نحو ما فعل اخوانهم الاولون ، وإما ان يغادروا الاشرم . والتعليم برمته مجانيّ .

لأمرٍ ما اطلت الكلام على هذا البرنامج التربيّ ، فهو يدل على ما في حركة غاندي من روحانية سامية، وهو ببرامجه اعظم عوامل الحركة شأناً . ينبغي كي نوجد هنداً جديدة ان نوجد نفوساً جديدة، قوية طاهرة ، هندية حقاً وصدقاً . وينبغي

كي نوجد هذه النفوس ان يؤلف جيش مقدس من الحواريين ، فيكونوا كحواريي المسيح « ملح هذه الارض » . ليس غاندي بصانع شرائع وقوانين على مثال ثوريي اروبة ، بل هو عجّان انسانية جديدة .

ان الحكومة ، مثل كل حكومة في موقفها ، لم تفهم شيئاً مما حدث . فكان اول مابدر منها اشارة سخرية و كبر . وقدقال نائب الملك اللورد شلمسفورد في اغسطس ١٩٢٠ : « ان اعظم الحماقات هذه الحماقة . » لكن الحكومة ما لبثت ان اضطرت الى النزول من سماء عجرفتها ، و كانت قلقة مضطربة لما نشرت في ٦ نوفمبر ١٩٢٠ بياناً فيه وعد ووعيد على السواء ، تقول به انها لم تشأ معاقبة الجناة ، لأن قادة الحركة كانوا يدعون الى عدم استعمال العنف ، بيد انها اصدرت امراً بمحاكمة الذين يجاوزون الحدود الموضوعة ، ويحضون على التذرع بالشدة والعصيان بقوة السلاح .

وسرعان ما جيزت الحدود ، ولكن من جانب الحكومة . لقد نمت الحركة نمواً مقلقاً وحدث في دسمبر ١٩٢٠ حادث ذو شأن لم يكن في الحسبان . لم تكن « اللامعاونة من غير عنف » حتى ذلك الحين إلاّ خطة موقتة او تجربة تقوم بها الهند ، وكانت الحكومة تمني النفس بأن المجلس الهندي العام سوف يلغيها في دورة نهاية السنة . فجاء المؤتمر الهندي الوطني المنعقد في ناغبور

يثبت تلك الخطة في المادة الاولى من الدستور :

« المادة الاولى : يرمي المؤتمر الوطني الى تحقيق سواراج (الحكم الذاتي) الشعب الهندي، ويتذرع الى ذلك بكل الوسائل السلمية والمشروعة ».

واثبت ايضاً خطة اللامعاونة التي كانت الدورة الخاصة في سبتمبر ١٩٢٠ قد قررتها، ووسّع نطاقها خاصاً بالذكر مبدء اللاعنف، مبيناً ضرورة الاتفاق بين مختلف العناصر في البلاد لفوز القضية، داعياً الى الاتحاد الهندوسي الاسلامي، بله الى تقارب الطوائف الممتازة والمنبوذة. وأخصّ ما ادخله على الدستور تحويرات اساسية تنعم على البلاد بنظام تمثيليّ شاملٍ اجزاء الهند كافة[1]. واعلن المؤتمر ان اللامعاونة في شكلها الحاضر

---

(١) اشترك في مؤتمر ناغبور ٤٧٢٦ مندوباً : ٤٦٩ من المسلمين و ٦٥ من السيخ و ٥ من البارسيين و ٢ من الانجاس و ٤٠٧٩ من الهندوس و ١٠٦ من النساء.

وينص الدستور الجديد على ان يكون عن كل ٥٠ الف نسمة مندوب واحد فيكون مجموع المندوبين اذاً ٦١٧٣ . ويعقد مؤتمر جميع الهند دورة واحدة في السنة (حوالى عيد الميلاد). اما لجنة المؤتمر التي تضمّ نحو ٣٥٠ عضواً فهي مكلفة بان تنفذ سياسة المؤتمر مأوّلةً قراراته. ولها في الفترة بين الدورتين سلطة المؤتمر بتمامها. وثمة ايضاً لجنة مؤلفة من ١٥ عضواً هي كالوزارة ازاء البرلمان، وللجنة المؤتمر حق اسقاطها. واختط مؤتمر ناغبور خططاً لتنظيم لجان مؤتمرات الولايات التي تمثل ٢١ ولاية و١٢ لغة.

ليست إلا مرحلة اولى في هذا الجهاد ، وانّ عدم مشاركة الحكومة في شيء والكف عن اداء الضرائب سيدخلان في حيز العمل في زمن يعيّن من بعد . ولاعداد البلاد لذلك اليوم المشهود نرى المؤتمر يوسع نطاق المقاطعة ، ويشجع النسج الهندي ، ويحث الآباء والطلاب على العمل بمبدأ اللامعاونة بأشد حمية من ذي قبل . اما الذين يخالفون قرارات المؤتمر فانهم يُخرجون من الحياة العامة .

هذا تثبيت دولة ضمن دولة ، دولة الهند الحقة ازاء الحكومة البريطانية . لذلك لم يكن بوسع الحكومة ان تقف بلا حراك : إما ان تصالح واما ان تحارب . ولقد كان الاتفاق ميسوراً عهدئذ لو أبدي شيء من التساهل . فأن المؤتمر اعلن انه بالغ الغاية «بالاشتراك مع انكلترة اذا شاءت ، وإلا فبدون معونتها». لكن العنف تغلب ايضاً هذه المرة كما عوّدتنا سياسة اروبة نحو الامم الاخرى . وطلبوا العلل والمعاذير فلم يعدموها .

ورغم عزيمة غاندي والمؤتمر الاكيدة على عدم استعمال العنف قامت في مختلف نواحي الهند عدة فتن وقلاقل ذات شأن لم تكن لها بحركات اللامعاونة إلاّ صلات بعيدة . ففي الولايات المتحدة (الله اباد) نشبت ثورات من الفلاحين ومستأجري الارض على مُلاّكها ، قمعتها الشرطة قمعاً دامياً . ثم ان حركة « العقالي » من طائفة السيخ التي كانت بالأصل دينية صرفة ، اتخذت اساليب

اللامعاونة ، ونشأ عنها في فبراير ١٩٢٠ قتل مئتين من السيخ. ليس لمنصف ان يحمّل غاندي وصحبه تبعة هذه الفاجعة ، وليدة التعصب . لكنها فرصة سنحت . فبدأ قمع الفتنة في اول مارس ١٩٢١ واستمر حتى نهاية السنة وهو يزداد شدة وقسوة . ولقد تعللت الحكومة اذ ذلك بالتظاهرات التي اقيمت ضدّ باعة الاشربة الكحولية . وليست هذه اول مرة تمشي فيها الكحولية والمدنية الاوربية يداً بيد . فصدر الامر بمنع تعبئات متطوعة اللامعاونة، وسُنّ قانون لمنع الاجتماعات الشغبة . واطلقت يد الشرطة المحلية في ولايات عديدة لسحق هذه الحركة التي وصفت بالثورية الفوضوية . والقي القبض على الوف من الهنود ، ولم تُراع حرمة اعيان القوم . وبالطبع فان هذه التدابير ايقظت الفتنة ونشأ عنها في امكنة مختلفة قتالٌ بين الشرطة والجمهور ، وحوادث قتل وحرق . فاجتمعت لجنة المؤتمر الهندي ببزوادا في آخر اسبوع من شهر مارس ونظرت فيما اذا كان يجب اعلان العصيان المدني ، لكنها رأت بحكمة نادرة المثال ان الامة لم تنضج النضوج الكافي ولم تنظم التنظيم الواجب لاستعمال هذا السلاح ذي الحدّين ، فقررت الانتظار . وعاد غاندي باشد حماسة من قبل الى الجهاد في سبيل الوحدة الهندية ، واتحاد الاديان والاقوام والاحزاب والطوائف. ووجه خطابه الى البارسيين[1]

(١) ٢٣ مارس ١٩٢١

(وهم في الهند اصحاب الثروات والتجارة والصناعة الكبرى) المصطبغين كما يقول بصبغة الروح الركفلري . وكان الاتحاد الهندوسي الاسلامي مهدداً ابداً بسطوة الاوهام القديمة والمخاوف والريب المتبادلة . فانصرف الى العمل بكليته [1] ، لا يسعى الى مزج الشعبين مزجاً هو اليوم من المستحيلات — ولو امكن لما رغب فيه ، بل الى ايجاد تحالف قائم على اساس الصداقة [2] .

وكان اسمى جهود غاندي مابذله لأدخال الطوائف المنبوذة في الجامعة الهندية . فان مطالبته الشديدة بحقوق الباريا وصرخات الألم والسخط التي كانت تلك الظلامة الاجتماعية تبعثها من صدره ، كافية وحدها لتخليد اسمه . إن الألم الذي يصيبه من جرّاء ما يسميه « افحش الادناس اللاصقة بالهندوسية » صادر عن ذكريات صباه . يقول إن واحداً من الباريا كان يأتي الى بيتهم

---

(١) ٦ اكتوبر ١٩٢٠ — ١١ مايو و ٢٨ يوليو و ٢٠ اكتوبر ١٩٢١

(٢) وكان يضرب المثل بصداقته الصميمة للمسلم مولانا محمد علي ، على ان كلاً منهما ظلّ محافظاً على دينه . ان غاندي لا يزوج ابنته من احد ابناء محمد علي ولا يوآكل صديقه ، وكذلك أمرُ محمد علي . ولكن هذا لا يمنعهما من ان يثق كل منهما بالآخر . وعلى كل فان غاندي لا يزعم ان تزاوج المسلمين والهندوس ومؤاكلة بعضهم لبعض من المنكرات . ولكن ينبغي ان يمرّ قرن قبل الوصول الى هذا الامتزاج . وما كانت السياسة العملية الرشيدة لتنحو نحو مثل هذا الاصلاح . إن غاندي لا يعارضها ، لكنه يرى انها سابقة لاوانها . وهو دليل آخر على حسن نظره في الشؤون العملية .

وهو صغير ، لقضاء الحاجات الدنيئة . فكان اهله يحرمون عليه ملامسة ذلك الرجل ، او يتوضأ . وكان غاندي لا يسلم بذلك ويجادلهم في الامر . وكثيراً ما كان في المدرسة يلامس الانجاس ، فكانت امه تشير عليه ان يلامس مسلماً ليتطهر من ذلك الدنس . لكنه لما بلغ الثانية عشرة قرّ رأيه واخذ على نفسه عهداً ان يمحو هذا الاثم من وجدان الهند ، ونوى الاخذ بناصر اخوانه الادنياء . ولم يظهر غاندي حرية فكر اوسع مما اظهره في خدمة قضيتهم . ودليل ذلك انه مستعد لترك دينه اذا برهن له ان النجاسة نصٌّ من نصوصه . ورأيه ان هذه الظلامة وحدها كافية لتبرير كل الظلامات التي يصاب بها الهنود في العالم [1] :

« اذا كان الهنود قد اصبحوا (باريا) الامبراطورية فان هذا من رَجْع العدل الازليّ . ليبدأ الهنود بغسل ايديهم الملطخة بالدم ! . . ان عقيدة النجاسة لاكبر عار على الهند . وفي افريقية الجنوبية وافريقية الشرقية والكندا يعامل الهنود ايضاً معاملة الباريا . ان السواراج (الحكم الذاتي) لمن المستحيلات ما زال في الهند (باريا) . الهند آثمة . ان انكلترة لم تأت ذنباً اعظم . اول فرض علينا هو ان نحمي الضعفاء . وان لا نسيء الى نفس احد من البشر . نحن لن نفضل العجماوات مالم نتطهر من هذا الاثم . ينبغي ان يكون السواراج سوءدد العدل على الارض من اقصاها الى اقصاها » (٢) .

ويريد غاندي ان تصلح حال الاخوان الپاريا بتشريع وطني

---

(١) خطاب عام — في ٢٧ ابريل ١٩٢١

(٢) ٢٧ اكتوبر ١٩٢٠ و ٢٧ ابريل ١٩٢١

وان يُمنحوا كثيراً من المدارس والآبار ، لان الانتفاع بالآبار العامة كان محرماً عليهم . ولكن ما العمل قبل بلوغ هذه الغاية ؟ إن نفاد صبره الذي لايأذن له بان يقف مكتوف اليدين منتظراً إقدام الطوائف الممتازة على رفع تلك الظلامة من تلقاء انفسهم حمله على الانضمام الى الپاريا . فترأسهم وعمل على جمع شتاتهم . واخذ ينظر واياهم في مختلف الخطط : ماذا يستطيعون ؟ أيستنجدون بحكومة الهند ؟ هو انتقال من رق الى رق آخر. أيرتدون عن الهندوسية — من الامور الجديرة بالنظر هذه الجرأة السمحاء من مؤمن هندوسي كبير — ويدينون بالنصرانية او الاسلام ؟ يكاد غاندي ينصح بذلك لو كانت الهندوسية مقرونة بمبدء النجاسة . لكنه يعتقد انها « غُدّة » وخيمة يجب ان تجتث من اصلها . ينبغي اذاً ان ينظم الپاريا صفوفهم للدفاع عن كيانهم. وان لديهم سلاحاً صارماً هو سلاح اللامعاونة يحاربون به الهندوسية اذ يقطعون كل صلة بسائر الهنود (نصائح عجيبة بجرأتها ودعوتها الى الثورة الاجتماعية في فم هذا الوطني !) لكن غاندي يستدرك قائلًا إن الپاريا عاجزون عن تنظيم انفسهم اذ لا زعماء لهم . لينضموا اذاً — وهو قصاراهم — الى حركة اللامعاونة الهندية العامة التي اول شروطها اتحاد الطوائف . ان اللامعاونة طهارة دينية ، ولا يصح ان يشترك بها من ينبذ الپاريا لانه يأثم بذلك اثماً كبيراً . وهكذا افلح غاندي في التوفيق بين

الدين والوطن والانسانية [1] .

وتوّجت هذه المساعي الاولى في سبيل الوحدة « بمؤتمر الطوائف المنبوذة » في احمد آباد الذي ترأسه غاندي في ١٣ و١٤ ابريل ١٩٢٠ ، والقى فيه خطبة من اجمل خطبه . هو لا يكتفي بالمطالبة بالمساواة بين الطوائف ، بل ينتظر ايضاً من الباريا اعمالاً جليلة في حياة الهند الاجتماعية الجديدة ، ويرد الثقة والايمان الى نفوسهم ، وينفخ فيهم من روح الامل الذي يضطرم في صدره . لقد آنس فيهم قوى كامنة عظيمة ، وهو على يقين من ان الطوائف النجسة قادرة بعد خمسة شهور ، بأهليتها وكرامتها ، على ان تتبوأ مقامها الحقيقة به ، في الاسرة الهندية الكبرى .

وأسعد الحظ غاندي فرأى الهنود ينفعلون لهذه الدعوة التي خاطب بها قلوبهم ، وشهد تحرير الباريا في كثير من الامصار [2] . ولقد كان عشية القبض عليه لايزال عاملاً في هذه السبيل ، عاداً الخطى التي خطتها القضية الى الامام . وانصرف البراهمة الى تحقيقها بكليتهم ، واعطت الطوائف الممتازة امثلة مؤثرة من

(١) ٢٧ اكتوبر ١٩٢٠

(٢) منذ آخر ابريل ١٩٢١ اخذ مبدء النجاسة في الخسران واصبح الباريا في كثير من القرى يعيشون مع سائر الهنود ويتمتعون بمثل حقوقهم (٢٧ ابريل ١٩٢١) . لكن مازالت حالتهم في نواحي اخري ، لا سيا في مدراس ، تدعو الى الاسف . وهذه المسألة مطروحة اليوم على المجالس الوطنية الهندية . وقد سبق لمؤتمر ناغبور ان اظهر في دسمبر ١٩٢٠ رجاءه في ان يمحي إثم النجاسة .

الندم والحب الاخوي . ويذكر غاندي قصة فتى من البراهمة في الثامنة عشرة من عمره جعل نفسه كناساً ليعيش مع الپاريا .[1]

كذلك اظهر غاندي شرف نفسه وسموّ همته في اخذه بقضية اخرى ، نعني قضية المرأة .

ان للمسألة الجنسية شأناً كبيراً في الهند الرازحة بعبء شهوانية طامية فادحة غير منظمة . فتزويج الصغار يستنفد قبل الاوان عزائم الامة الجسمانية والروحية ، وشيطان الشهوة يثقل على الفكر ، وينشأ عن ذلك الحط من كرامة المرأة . لهذا أخذ غاندي ينشر شكوى الهنديات من الحالة السيئة التي يجعلهن فيها وطنيو الهنود[2] . وهو يؤيد هذه الشكايات قائلاً ان هذه قرحة في الهند ، وخيمة كمبدء النجاسة . لكنه يستدرك بقوله إن العالم باسره مصاب بها وان المشكلة كونية عامة . وهو يرجو مثل رجائه في قضية الپاريا ، ان يصدر الاصلاح من المضطهَدين لا من المضطهِدين . فهو يخاطب النساء سائلاً اياهن ان يلزمن الرجال باحترامهن اولاً ، وذلك بأن يكففن عن اعتبار انفسهن موضع شهوة الرجل . ليشتركن بعزم في الحياة العامة ، وليقدمن على مكارهها واخطارها . ليس حسبنا ان يكف النساء عن بذخهن وان يطّرحن الانسجة الاجنبية ويحرقنها ، بل ينبغي

---

(١) ٢٧ ابريل ١٩٢١

(٢) ٢١ يوليو ١٩٢١ و٦ اكتوبر ١٩٢٠

ايضاً ان يشاطرن الرجال كلّ متاعبهم . لقد ألقي نسوة من الاشراف في غيابة السجن بكلكتا : هذا خير ! ليتحاشين المطالبة بمعاملة خاصة ، وليظهرن كالرجل صبراً على مكاره الحياة وحسنَ احتمالٍ لشظف العيش . بوسع المرأة ان تبذَّ الرجل في هذه السبيل . لايخشَ النساء شيئاً ، فان اضعفهن قادرة على حفظ شرفها : بحسبها ان توطن نفسها على الموت !

ولم ينس غاندي « اخواتنا الساقطات » فهو يروي الاحاديث التي دارت بينه وبينهن في مجالس مؤلفة من مئات منهن في ولاية أنضرا وفي باريسال . وكان يحدثهن بكرم نفس غير مصطنع ، ويحدثنه ويساررنه ويسألنه نصحاً . هو يبحث لهن عن مهنة شريفة ويقترح عليهن المغزل ، وهن يعدنه بالانصراف اليه غداً اذا مدت اليهن يد المعونة . ثم ان غاندي يخاطب رجال الهند مذكراً اياهم بوجوب احترام المرأة قائلاً :

« ان هذا الاسلوب في اللهو بالرذيلة لا موضع له في ثورتنا . معنى السواراج هو اننا نعتبر سكان الهند كافة اخوة واخوات . . الاحترام واجب لهم جميعاً . ليس جنس النساء بالجنس الضعيف ، بل هو اشرف الجنسين بما فيه من قوة على تضحية النفس واحتمال العذاب والضراعة والايمان والمعرفة . كثيراً مافاق حدس المرأة إدعاء الرجل علماً فائقاً . »

ولقي غاندي من الهنديات ، بدءاً بامرأته ، معونة لبيبة ، وكان افضل مريديه من النساء .

(٢) هذا عنوان احدى مقالاته : اخواتنا الساقطات (١٥ سبتمبر ١٩٢١)

٣

بلـغ سؤدد غاندي الذروة سنة ١٩٢١ فكان له سلطان معنوي كبير ، وأعطي ولم يطلب ، قوة سياسية تكاد تكون غير محدودة . فالشعب يعتقد انه من الاولياء وقد مثلوه في صورة « شري كرشنا » (١) . وفي دسمبر ١٩٢١ خلع عليه مؤتمر جميع الهند الوطني السلطة الكاملة الشاملة وفوض اليه كل الشؤون ، وترك له الخيار في تعيين خلفه . هو زعيم الامة الهندية بلا منازع ، إن شاء اطلق الثورة من عقالها ، وإن شاء وضع الاسس لاصلاح ديني .

لكنه لم يفعل ولم يرد ذلك . أكبرُ نفسٍ أمْ خشيةٌ واحجام ؟ ربما كلاهما . من الصعب على المرء (سيما اذا كان ابن مدنية غربية) ان ينفذ الى ضمير عميق دقيق بهذا المقدار ، كضمير غاندي . ومن الصعب ان نحكم حكماً صحيحاً هل كانت يد النوتي ، في خضم الحوادث التي تدافعت الهند في تلك السنة المائجة ، ابداً ثابتة ، فقادت السفينة العظيمة ، دون ان تحيد او تضطرب ؟ ولكن ساجتهد لبيان ما استطعت ان أعرفه من هذا اللغز الحي ، بالاجلال الديني الذي في نفسي نحو ذلك

(١) يحتج غاندي على ذلك في « الهند الجديدة » يونيو ١٩٢١

الرجل العظيم ، وبالصدق الواجب عليّ لصدقه واخلاصه .

اذا كان سلطان غاندي كبيراً ، فان مخاطر استعمال هذا السلطان ليست اقل شأناً . لقد اتسع نطاق العمل السياسي واصبح يحرّك مئات الملايين من الخلق ، لذلك كانت قيادته وحفظ التوازن في عباب ذلك البحر الزاخر يزدادان صعوبة . مشكلة تجاوز طاقة البشر : أن توفق بين اعتدال الفكر وسعة النظر ، وبين هذه الجموع المطلقة القياد . ان النوتي التقي الحليم يصلي ويتوكل على الله ؛ لكنّ الصوت الذي يسمعه يصل اليه ممزوجاً بصخب العاصفة . ثم هل يبلغ ذلك الصوت اسماع الآخرين ؟

لا احد اقلّ تعرضاً من غاندي لخطر الكبرياء . فما كان لعبادة العامة اياه ان تضيع رشده ، بل انها كانت تجرح ضراعته كما تسيء الى ادراكه الصحيح . هو مثال فذّ في تاريخ الانبياء وكبار المتصوفين من جهة انه ليس له رؤى ، ولا وحي يوحى ، وانه لا يحاول اعتقاد ذلك ولا جعل الناس يعتقدونه . فلله هذا الصدق النزيه ! لقد ظلّ رأسه بلا سكر ، وقلبه بلا غرور . كان ولم يزل رجلًا مثل كل الرجال . لا ، لا تلقبوه بالقديس او الوليّ . انه لا يريد ذلك (وهو بهذا وليّ حقاً) . قال غاندي :

« يجب ان نضرب على كلمة « قديس » وان نمحوها من الحياة الحاضرة . أنا اصلي مثل كل هندوسي صالح ، واعتقد اننا قادرون جميعاً على ان نصبح

من رسل الله . ولكن لم اوت وحياً خاصاً من عند الله . أنا على يقين من ان الله يتجلى لكل انسان ، لكننا نسد آذاننا فلا نسمع ذلك الصوت الخفيت الباطن . . لست الا عاملا حقيراً وخادماً وضيعاً للهند وللانسانية . ولا ارغب قط في تأسيس فرقة دينية ، لاني اطمح الى اسمى من هذا . لست ادعو الى حقائق جديدة ، بل اني اعمل على اظهار الحقيقة كما اعرفها وعلى اتباعها . اني أرسل نوراً جديداً على كثير من الحقائق القديمة (١) » .

اذاً هو في نظر ذاته وضيع الجانب ، شديد الاحتراس ، عاجزٌ عن كل حصر او استئثار ، سواء بصفته وطنياً هندياً ام بصفته داعية اللاممعاونة . لا يُقرّ ظلماً ولو في سبيل القضية العادلة : « لا ينبغي لنا ان نستبدل رقّ الحكومة برقّ دعاة اللاممعاونة (٢) » ولا يرضى كذلك ان يعارض بوطنه سائر الاوطان لان وطنيته ليست محصورة بين حدود الهند . « الوطنية والانسانية واحدٌ في نظري . انا وطني لاني انسان . لست متعصباً ولن أسيء الى انكلترة او الى المانية لأنفع الهند . ليس لروح التغلب موضع في خطة حياتي . . ان الوطني يبعد عن الوطنية بقدر ما يضعف حبه للانسانية (٣) » .

ولكن هل كان لاتباعه ابداً مثل هذا الاعتدال؟ كيف يكون مذهبه في ايدي بعضهم ؟ وماذا يصل منه الى العامة بوساطتهم؟

---

(١) ١٢ مايو ١٩٢٠ و ٢٥ مايو و ١٣ يوليو و ٢٥ اغسطس ١٩٢١

(٢) ٨ دسمبر ١٩٢٠

(٣) ١٦ مارس ١٩٢١

لما عاد رابندرانات تاغور الى الهند في اغسطس ١٩٢١ بعد رحلة في اروبة دامت بضع سنين ، اقلقه التبديل الذي شهده في افكار الهنود . لكن قلقه لم ينتظر العودة كي يظهر للناس ، فقد اعرب عنه في سلسلة من الرسائل يخاطب بها من اروبة اصدقاءه الهنود ، ونُشر كثير منها في مجلته « Modern Review »[1] ومن الواجب ان نقف عند هذا الخلاف القائم بين مفكرين جليلين يحترم كل منهما الاخر ويعجب به ، لكنهما مفترقان حتماً بقدر ما يفترق حكيم مثل افلاطون عن حواري كالقديس بولس . هنا ملاك الايمان والرحمة الذى يريد ان يكون خميرة انسانية جديدة ، وهناك ملاك العقل الحر الرحب المطمئن الذي يريد ان يضم في صدره مظاهر الوجود كلها .

ما فتيء تاغور مصدقاً بقداسة غاندي . وقد سمعته يحدثني عنه باجلال كبير . فلما ذكرت تولستوي في عرض الحديث عن المهاتما ، اظهر تاغور ان غاندي اقرب اليه من تولستوي ، واكثر

---

(١) نشرت رسائل ٢ و ٥ و ١٣ مارس ١٩٢١ في « المجلة الحديثة » جزء مايو ١٩٢١ . ونشرت مقالة « نداء الحقيقة » التي كتبها تاغور بعد رجوعه الى الهند في « المجلة الحديثة » – في اول اكتوبر ١٩٢١ .

وعدا هذا الجدال القلمي ، نعرف انه كان بين تاغور إثر عودته ، وبين غاندي ، اجتماع خاص لم ينقل احد ما دار خلاله من الاحاديث . لكن س . ف . اندريوس الذي شهد وحده ذلك الاجتماع تفضل باطلاعنا على المواضيع التي دار حولها الجدل ، وعلى الحجج التي ادلى بها كل من الرجلين .

نورانية (وهو رأيي اليوم اذ اصبحت أعرفَ بــه من قبل) لان كل ما في غاندي فطرة ساذجة متضعة طهورة ، والطمأنينة تكسو النزاع الذي قد ينشب في باطنه . عـلى ان كل ما في تولستوي ثورة كبرياء على الكبرياء ، وغضب على الغضب ، وهوىً على الهوى ، بل ان جماع نفسه العنف ، حتى في اللاعنف .

كتب تاغور من لندن في ١٠ ابريل ١٩٢١ : « نحن مدينــون لغاندي بانه منح الهند فرصة تبرهن فيها على ان ايمانهــا بالروح الالهي في الانسان لا يزال حياً » . وهو رغم اعتراضه على نواحي من حركة غاندي ، يُظهر اذ غادر فرنسة عائداً الى وطنه ، استعداده لمساعدته . بل ان البيان الساطع الذي نشره في اكتوبر ١٩٢١ (سأنقله فيما بعد) بعنوان « نداء الحقيقة » وفيه اثبات القطيعة بين الرجلين ، مستهلٌّ باعظم مديح مُدح غاندي به .

وغاندي كذلك يعرب عن احترامه الودي لتاغور ، ويحاول جهده ان لا يحيد في خلافه معه عن هذا الاحترام قيد شعرة . وان القارىء ليشعر بأن غاندي يعاني نصباً كلما اضطر الى مجادلته . وحينما كان يعمل بعض اصدقائه الاخيار على اذكاء نار الخلاف بنقل بعض الاحاديث الخاصة ، كان غاندي يلزمهم الصمت مؤكداً ما هو مَدينٌ به لتاغور [1] .

---

(١) تعارف تاغور وغاندي من عهد بعيد . وقد حلَّ غاندي اكثر من مرة ضيفاً على تاغور في صانتينكتان . ويقول غاندي انه كان مأذوناً له ان

ولكن كان حتماً ان يبدو ما بين فكريهما من خلاف . ومنذ صيف ١٩٢٠ رأينا تاغور يعرب عن اسفه على ان قوة الحب والايمان التي يفيض بها قلب غاندي قد جعلت بعد موت طيلاق في خدمة السياسة . ومن الثابت ان غاندي لم يوطن نفسه على ذلك الامر بطيب خاطر . لكن طيلاق مات فاصبحت الهند بلا زعيم سياسي ، فوجب ان يخلفه .

قال غاندي اذ عقد النية على ذلك :

« اذا ظهر اني اشتغل بالسياسة فهو لان السياسة تلتف علينا اليوم التفاف الافعى ، ولا سبيل مهما صنعنا الى التملص منها . اريد اذاً ان احارب الافعى . . اني اعمل على ادخال الدين في السياسة (١) » .

لكن تاغور يبدي اسفه لهذه الضرورة قال في دسمبر ١٩٢٠ :

« ان القوة المعنوية التي تمثلها سيرة مهاتما غاندي » والتي يستطيع هو وحده ان يمثلها » دون الناس جميعاً ، واجبة لنا . وأما ان يُجعل مثل هذا الكنز الثمين في سفينة سياستنا الواهية ويُقذف بها في امواج غير متناهية من الشكاوى المستشيطة ، فهي اذاً مصيبة جسيمة تنزل بوطننا الذي لا مهمة له إلاّ ان يبعث الموتى بضرام الروح . ان التفريط في ثروتنا الروحية من اجل مغامرات هي من وجهة الحقيقة المعنوية سيئة ، لمدعاة الى الحزن الشديد . من الجناية ان تحوّل القوة المعنوية الى قوة عمياء (٢) » .

يعتبر هذه الدار دار عزلة له . وفيها ربي اولاده اذ كان غاندي في انكلترة

(١) ١٢ مايو ١٩٢٠ (٢) ثم قال : « كلّ الاجلال للمهاتما ! لكن ساستنا لن يجدوا سبيلاً الى عدم التفكير في تسخيره لمناورة خفية لبقة في لعبهم على رقعة الشطرنج . » ١ اكتوبر ١٩٢١ .

وقد املى عليه هذه الاسطر حملة اللامعاونة والاضطراب الذي اثار الهند باسم الخلافة وفظائع البنجاب . كان يخشى عواقبها في شعب ضعيف قابل لعوارض غضب هستيري . فهو يودّ لو تُصرف الامة الهندية عن فكرة الانتقام او المطالبة بتعويض مستحيل ، وتنسى مافات ، ثم لاتفكر إلا في ايجاد روح الوطن الاكبر . وبقدر ما يعجب تاغور بما في صدر غاندي وعمله من روح التضحية (هذا ما يقوله في رسالة ٢ مارس ١٩٢١ التي سأنقلها بعد حين) فهو يستنكر عنصر النفي الذي تضمنته العقيدة الجديدة - اللامعاونة . ان تاغور يكره كل ما فيه كلمة « لا » . وهي فرصة سانحة للمقابلة [١] بين روح الاثبات في البرهمية القائمة على تطهير مسرات الحياة ، وبين روح النفي في البوذية القائمة على الزهد فيها . ويدفع غاندي [٢] هذا الرأي بقوله انه قد لايكون الرفض اقل وجوباً من القبول ، وان الجهد البشري يتألف من كليهما على السواء . ان الكلمة التي ختمت بها الاوبانشادا كلمة نفي ، وتعريف البرهمي عند واضعي هذا الكتاب هو « نيتي » اي « ليس هذا » . لقد خسرت الهند القدرة على ان تقول «لا» فغاندي يُرجع اليها هذه القدرة . « قبل ان تطرح الحَبّ يجب ان تنزع العشب الضار وان تجتث الشر من اصوله . »

---

(١) ٥ مارس ١٩٢١

(٢) ١ يونيو ١٩٢١

ولا مراء في ان تاغور لا يريد اجتثاث شيء . إن تأمله الشعري يتسع لكل ما هو كائن ، وهو ينعم بما في الوجود من نظام وانسجام . ولقد رأيناه يعرب عن هذا في صفحات عبقرية الجمال ، لكنها بالغة الغاية في التجرد عن كل عمل . هي رقصة « ناتاراجا » التي تلاعب الاخيلة والاوهام :

« اني مفرغ جهدي لأوفق بين تفكيري وبين هذه الخامة العظيمة البالغة حدّها الاقصى ، التي تطمو الان على وطني . ولكن من اين فيّ هذا الروح ، روح المقاومة ، رغم رغبتي الاكيدة في صرفه ؟ لا اجد جواباً صريحاً لهذا السؤال . ولكن هنا ، في ظلمات قنوطي ، ابتسامة يذرّ نورها وصوت يقول لي : « ان مكانك هو مع الاولاد ، على ساحل العوالم . . هنالك طمأنينتك وهنالك اكون بقربك . » لهذا انا منذ حين الهو باختراع انغام جديدة وليست هذه الانغام إلاّ هنات جذلة بأن تجري مع مرّ الساعات ، ترقص تحت اشعة الشمس ، ثم تغيب ضاحكة . ولكن بينما انا الهو اذ بالخليقة كلها في نعيم . وهل اوراق الشجر وازهارها الا تجارب انغام لن تنقطع ابداً ؟ أليس إلهي هو العابث الأزلي بالازمنة ؟ انه يقذف بالنجوم والسيارات في خضم التحولات ، ويطرح الاعصر كسفائن من ورق ملأها بخطراته . وحينا اقلق باله واتوسل اليه ان يجعلني تلميذه الصغير وان يقبل بعض الهنات التي من صنعي حمولةً في سفينة لهوه ، يبتسم لي فاجري خلفه آخذاً بطرف ردائه . ولكن اين انا وسط هذه الجماهير ، مدفوعاً من وراء ، مشدوداً من كل ناحية ؟ وما هذا الضجيج المحيط بي ؟ إن يكن نشيداً فان قيثارتي قادرة على ان تأخذ النغم ، ثم انضمّ الى الجوقة لاني من المغنين . اما اذا كان ضجيجاً فحسب ، فأن صوتي لن يُسمع ، وانا غائب الرشد . لقد اجتهدت كل هذه الايام ، مرهفاً اذني ، لاتبين ثمة نشيداً . لكن فكرة اللامعاونة بحجمها الضخم الطنان وخطرها

المتكاثف وصراخها بالنفي لا تغنيني بشيء قط . لهذا قلت لنفسي : « اذا كنت غير قادر على ان تماشي ابناء وطنك ، خاطياً خطاهم في هذه الازمة الكبرى من تاريخ بلادك ، فحذار ان تقول انهم ضالون وانك على هدى . ولكن دع وظيفتك كجندي ، وارجع الى زاوية الشاعر ، وتأهب لقبول هزء العامة وسخطها (١) . »

هذا ما كان يقوله غوتي — لو كان غوتي هندياً . ويلوح ان في هذا الكفاية : ان الشاعر يستأذن بالانصراف من العمل الذي ينني ثم يلوذ بسحر الابتكار . لكن تاغور لم يقف عند هذا الحد . فان القدر ، كما يقول « اختاره ليدفع سفينته في جهة مضادة للتيار . » ليس بالشاعر فقط بل هو يومذاك سفير آسية الى اروبة ، السفير الروحاني . وقد جاء يسأل اروبة عوناً على تحقيق الجامعة الكونية العامة التي يريد تأسيسها في صانتينكتان .

« ياهزء القدر ! بينما انا هنا ، على هذا الساحل من الاقيانوس ، ادعو الى تعاون الثقافات بين الغرب والشرق ، اذا بهم يدعون ، على الساحل الاخر ، الى اللامعاونة (٢) . »

كانت اللامعاونة تجرحه مباشرة في العمل الذي فرضه على نفسه وفي ثقته بالفكر الانساني : « انا مؤمن بالاتحاد الحقيقي بين الشرق والغرب (٣) »

وكانت تجرحه في مداركه التي وسعت ثقافات الدنيا جميعاً :

« كل مفاخر البشرية مفاخر لي . . ان ذات الانسان اللامتناهية (كما

---

(١) و (٢) و (٣) ٥ مارس ١٩٢١

ورد في الاوبانشادا) لن تتحقق الا في الوئام الاسمى بين الشعوب الانسانية كافة .. ودعائي هو ان تمثل الهند تعاون امم العالم جميعاً . في نظر الهند الوحدة هي الحقيقة والانقسام هو الضلال . الوحدة هي ما يشتمل على كل شيء ، فلا يمكن اذاً الوصول اليها عن طريق النفي والانكار . ان ما يبذل اليـوم من جهود لفصل روحنا عن الروح الغربي هو بمثابة انتحار ادبي .. ان الزمن الحاضر لفي سلطان الغرب ، ولم يكن هذا في الامكان ، الا لانه أُلقيت الى الغرب مهمة عظيمة لمصلحة الانسان . فعلينا نحن ابناء الشرق ان نتعلم منه . لاشك في ان من الشر اهمالنا ثقافتنا القومية من زمن بعيد ، وجعلنا الثقافة الغربية في غير موضعها الحق .. اما القول بأن من الشر ايضاً بقاءنا على اتصال بها فهو تشجيع لأحط مظاهر التعصب الاقليمي الذي لاينتج إلاّ فقر المدارك . مشكلة العصر الحاضر مشكلة كونية عامة ، فلن تستطيع امة ان تنجـو وحدها بالافتراق عن سائر الامم . إما ان ننجو جميعاً ، واما ان نهلك جميعاً (١) . »

وكما ان غوتي لم يسلّم سنة ١٨١٣ بوجوب كره المدنية الافرنسية ، فكذلك لا يقدر تاغور على التسليم بوجوب الغاء المدنية الغربية . هو يعلم ان غاندي لا يرمي الى ذلك اصـلاً ، لكن ثورة الاهواء القومية في الهند ستجعل لاقواله هذه الدلالة الفاسدة ، وهو يخاف غائلة هذه البربرية الروحية :

« الى مَ يتقدم الطلاب بقربان تضحيتهم ؟ انهم لا يتقربون بها الى تربية اكمل بل الى اللاتربية . اذكر ان نفراً من الطلاب اثناء حركة السوادشي الاولى دخلوا علي وقالوا لي : اذا اوصيتنا بترك مدارسنا وكلياتنا عملنا بنصحك

---

(١) ١٣ مارس ١٩٢١ — ثم رجع الى هذا الرأي وفصّله في مقالتـه : « اتحاد الثقافات » في مجلته — نوفمبر ١٩٢١ .

دون تردد . فرفضت ذاك بشدة، وذهبوا ساخطين وهم في ريب من صدق محبتي لوطني(١) . »

في تلك الايام من ربيع ١٩٢١ اذ بلغ تاغور ان ابناء وطنه يقاطعون في الهند المدارس الانكليزية واغتم لهذا النبأ ، شهد ايضاً في لندن مثالاً من ذلك التعصب الفكري . فان فريقاً من الطلاب الهنود قاموا بتظاهرات شائنة خلال محاضرة كان يلقيها استاذ انكليزي من اصدقائه يدعى پرصن . فاغضب تاغور هذا العمل وكتب الى مدير صانتينكتان كتاباً يعيب فيه هذا التعصب ويحمّل حركة اللامعاونة تبعته . فردّ عليه غاندي (٢) منتقداً التربية الادبية الاوروبية التي لا تعنى بتربية الخلق والتي يتهمها بنزع صفة الرجولة عن الشبيبة الهندية ، لكنه يستنكر فظاظة اولئك الطلاب ويحتج بحرية فكره وسعة صدره :

« لا يهمني ان يكون بيتي محصوراً من كل ناحية ونوافذي مسدودة . بل يهمني ان تهب ريح الثقافات من كل البلاد وتجول طليقة بين جدران داري . ولكن لا اريد ان امكن هذه الريح من حملي الى حيث تشاء . ليس ديني دين سجن ، فان فيه موضعاً لاحقر خلق الله . لكنه مغلق دون جبروت الجنس والدين واللون . »

هذا كلام شريف لكنه لا يطمئن نفس تاغور . ان تاغور يثق كل الثقة في غاندي ، لكن خوفه من الغانديين . فهو لم

---

(١) حركة الاستقلال الهندي الاولى التي نشأت سنة ١٩٠٧ — ١٩٠٨ عن تقسيم البنغال . (٢) في مقالة « قلق الشاعر » اول يونيو ١٩٢١

يكد يخطو اثر عودته في اغسطس ١٩٢١ خطاه الاولى في الهند حتى ضاق صدره بايمان الهنود الاعمى بتوكيدات الامام جميعاً. وقد هاله هذا المظهر من مظاهر الاستبداد الروحي وما فيه من شر قريب. فنشر في اول اكتوبر بياناً في « المجلة الحديثة » عنوانه « نداء الحقيقة » ينعي به ما يدعوه « ذهنية الارقاء ». ومما يزيد هذا الاحتجاج قوة انه مستهل بمدحة سنية لشخص المهاتما. فبعد ان ذكّر تاغور بفواتح الحركة الاستقلالية في الهند سنة ١٩٠٧ — ١٩٠٨ قال ان نظر زعماء السياسة الهندية كان لا يزال كتبيا صرفاً، وانهم كانوا يستوحون أخيلة بورك وغلادستون ومازيني وغاريبالدي، وانهم عجزوا عن مجاوزة الحد الذي بلغته عهدئذ الصفوة المفكرة التي تتكلم الانكليزية :

« في ذلك الحين جاء مهاتما غاندي، فوقف على عتبة كوخ الالوف من البائسين، لابساً مثل لباسهم، وخاطبهم بلسانهم. هناك كانت الحقيقة لا في شاهد من كتاب. وهكذا فان اسم المهاتما الذي اطلق عليه هو اسمه حقاً. من الذي شعر غيره بأن ابناء الهند كافة هم من لحمه ودمه ؟ ان القوى الروحية المقهورة، اذ لامست الحقيقة، تجلت للعيان. ولما وقف الحب الصادق بباب الهند، فُتح الباب بمصراعيه. لقد ايقظت الحقيقةُ الحقيقةَ.. شرفاً للمهاتما الذي جعل قوة الحق مشهودة ! كذلك كان امر بوذا اذ جهر بحقيقة الرحمة نحو الاحياء جميعاً، تلك الحقيقة التي كانت ثمرة رياضته نفسه فان الهند يومذاك بُعثت في زهو شبيبتها وفاضت قوتها علوماً وفنوناً وغنىً حتى غمرت البوادي وما وراء البحار.. لم يتوصل عمل تجاري او حربي قط الى مثل هذه النتيجة الجليلة. الحب وحده حقّ، وهو متى يمنح الحرية يجعلها في صميم نفوسنا. »

لكن هذا المديح ينقطع بغتة ، وتتلوه الخيبة :

« لقد طفت على البحار انغام من موسيقى هذه اليقظة العجيبة، يقظة الهند بفعل الحب ، حتى وصلت الي . فعلى رجاء ان اتنشق النسيم اللطيف ، نسيم الحرية الجديدة ، عدت الى وطني جذل الفؤاد. لكن ما وجدته لدى وصولي أغمني وأيأسني . وجدت البلاد رازحة بجو ثقيل يضغط على صدرها . لا ادري اي عامل خارجي كان يحمل الناس جميعاً على ان يتكلموا بلهجة واحدة وان يشدوا انفسهم الى رحى واحدة . اينما كنت سمعت الناس يقولون ان العقل والثقافة يجب ان يقفل عليهما ، وانه لم يبق لنا الا التمسك باذيال الطاعة العمياء . لله ما اهون سحق حرية الانسان الباطنة باسم الحرية الظاهرة! »

هذان احتجاج وقلق نعرفهما . لقد كانا في كل زمان ، وقد اسمعنا اياهما اصحاب العقول الحرة الآخرون من ابناء العالم القديم المشرف على الزوال ازاء العالم المسيحي الناشئ . وانا لنشعر اليوم بقيام هذه المعارضة في انفسنا كلما شهدنا هذه الامواج البشرية تطمو بفعل المد الاعمى من عقيدة اجتماعية او قومية . تلك ثورة النفس الحرة منذ الازل على عصور الايمان ، الايمان الذي احدثته هي ، لان الايمان حرية لامتناهية لحفنة من خيار الناس ، ورق للامم التي تهتف له او عبودة تضاف الى عبوداتها .

لكن لوم تاغور يرمي الى ابعد من تعصب العامة . فهو يتخطى جماعات الناس السكارى بخمر الطاعة ، ويصيب المهاتما . مهما تكن عظمة غاندي ، أليست السلطة التي يحملها مما تنوء به قوى رجل واحد ؟ ان مثل قضية الهند لا يصح ان يحمل في

يدي زعيم فذ . المهاتما هو امام الحق والحب ، ولا مراء في ان «عصا الذهب القادرة على ايقاظ وطننا ليبصر الحق ويعرف الحب ليست من الامتعة التي يستطيع اي صائغ ان يصنعها .. لكن تأسيس السواراج أمر عظيم جليل ، وسبله شاقة بعيدة المدى . لا غنىً لنا في هذا المشروع عن الحماسة والعاطفة، لكن البحث والروية ليسا اقل وجوباً . يجب ان يتدبر الاقتصادي ، وان يصنع الصانع ، وان يربي المربي ، وان يحتال رجل الدولة ، وبكلمة وجيزة يجب ان تبذل قوى البلاد المعنوية في كل ناحية . يجب ان نبقي في كل موضع على روح البحث وان نطلقه من كل القيود وان نمهد له كل العقبات . لا ينبغي لنا ان ندع العقل يجبن بضغطنا عليه سراً ام علانية . »

فتاغور اذاً يستنجد بكل مافي الهند من قوى حرة ، حاثاً اياها على التعاون :

« في غاباتنا العريقة في القدم كان حكماؤنا ، اذا جاءهم الوحي ، يدعون اليهم كل باحث عن الحقيقة .. لم لا يرسل مثل هذا النداء حكيمنا الذي يريد اليوم ان يقودنا في سبيل العمل ؟ »

لكن الحكيم غاندي لم يرسل غير هذا النداء ، الى كل رجل ، والى الجميع : « اغزلوا وانسجوا ! » .

« اهذا هو نداء العصر الجديد الى الخليقة الجديدة؟ ان يكن في الماكنات الكبيرة خطر على روح الغرب، أفليس في الماكنات الصغيرة خطر علينا اعظم وبالاً ؟ »

كذلك ليس حسبنا ان تتعاون قوى الامة كافة ، فيجب ايضاً ان تتعاون وقوى العالم جميعاً . « ان يقظة الهند متصلة بيقظة العالم . . انها امة تحصر ذاتها في ذاتها فهي مضادة لروح العصر الجديد . » ويذكر تاغور الذي قضى في اروبة بضع سنين الرجال الذين اجتمع بهم هناك ، اولئك الاروبيين الاخيار الذين اطلقوا نفوسهم من رق التعصب القومي وجعلوها خالصة لخدمة الانسانية جمعاء – تلك الاقلية المضطهدة المؤلفة من اناس وطنهم الدنيا باسرها ، الذين يرفعهم تاغور الى مقام السانياسين (١) لانهم حققوا في انفسهم الوحدة الانسانية . »

« ونحن وحدنا نظل راضين بان نسبح باسم النفي ، ولا نفتأ نذكر غلطات الغير ، ونسعى الى تشييد السوارج على اسس من الاحقاد . ان الطائر متى يبعثه الفجر من مرقده ، لا يستغرق طلب الغذاء يقظته كلها . فان اجنحته تجيب دعوة السموات دون ان يصيبها كلال ، وان حلقه يرسل الى النور الجديد اناشيد البهجة . كذلك الانسانية الجديدة ارسلت دعوتها الينا . فليجب فكرنا تلك الدعوة بلغته الخاصة . . اول فرض علينا ، عند الفجر ، هو ان نذكر الواحد الاحد الكائن بلا تمييز بين طائفة وطائفة او بين لون ولون ، الذي يكفي بمختلف قواه حاجات كل طائفة وكل الطوائف . لنبتهل الى الذي يهب الحكمة ان يوحدنا جميعاً ، في روية وفهم صحيح ! »

ان هذا الكلام الملوكي ، بل القصيدة المشرقة التي قلما سمعت مثلها امة من الامم ، لتعلو على كل الخلافات البشرية . وليس فيها

---

(١) اي الذين انتهوا من حياتهم الشخصية لينعموا بالوحدة على الانسانية

موضع للانتقاد الاّ من جهة انها تعلو عليها اكثر مما ينبغي . ان تاغور مصيب ، في ذروة العصور . والشاعر المحلق (او القبّرة التي لها عِظَم النسر كما يسمي « هيني » احد كبار موسيقينا) يغني على اطلال الازمنة . انه يحيا في الابدية . لكن الحاضر ملحاح والساعة التي تمر تتطلب لأوجاعها تسكيناً عاجلاً ، ناقصاً لكنه تسكين على كل حال . ان غاندي الذي تعوزه تحليقات تاغور (او لعله زهد فيها ليعيش مع البائسين) يجد هنا مجالاً للرد واسعاً. وقد رد هذه المرة باشدّ مما سبق له ان يردّ ، خلال هذا الجدال الشريف . ولم يؤخر جوابه ، فظهرت مقالته في جريدة « الهند الجديدة» في ١٣ اكتوبر وهي مؤثرة جداً . ان غاندي يشكر الى « الحارس الجليل » تحذيره الهند من مخاطر يذكرها . وهو متفق واياه على وجوب حرية النظر :

« ليس على امرىء ان يجعل عقله في حفظ احد من الناس . إن التسليم الاعمى شرّ في الاغلب من خضوع المكرَه لسوط المستبد . قد يُرجى الخير في من استرقته القوة الغاشمة ، ولكن لا رجاء في من استعبده الحبّ . »

ان تاغور حارس امين يُحذّر من اقتراب اعداء يُسمّون: الافراط في التعبد ، والجمود ، والتعصب ، والجهل . لكن غاندي لا يسلم بصحة انتقادات تاغور . ان المهاتما يخاطب دوماً العقل ، ولا يصح القول ان في الهند طاعة عمياء . اذا كانت الامة قد اعتزمت استعمال المغزل فهي لم تعتزم ذلك إلاّ بعد

تدبر طويل جهيد . ان تاغور يحدّث عن الصبر ويقنع بالاناشيد الجميلة . لكنها الحرب أعلنت ، فليضع الشاعر طنبوره جانباً . له ان يغني بعد ذلك ! « متى تشتعل النار في البيت ، يحمل كل امرىء دلوه لاطفاء الحريق . . »

« حينما ارى الذين حولي يموتون لانهم لا يجدون قوتاً ، فان الهمّ الوحيد الذي يجوز لي هو ان اطعم المتضورين جوعاً . . الهند بيت شبت فيه النار . . الهند تموت جوعاً اذ لا عمل لديها يكفل لها القوت . . لكننا تموت جوعاً . . هذه رابع مجاعة تصيب المقاطعات المنشقة . . اوريسا تعاني آلام مجاعة مزمنة . . ان الهند تزداد كل يوم عياء ، ويكاد لا يجري دم في عروقها . فاذا لم نتدارك الامر ، فانها ستتداعى ثم تنقضّ . . ان الله لن يتجلى لشعب جائع لا عمل لديه ، الا في صورة العمل والطعام الموعود أجراً على العمل . لقد خلق الله الانسان ليكسب معاشه بعمله ، وقال ان الذين يأكلون دون ان يعملوا هم لصوص . . انفكر في ملايين الناس الذين هم احط من العجاوات والذين يوشكون ان يموتوا ! في المغزل حياة هؤلاء الملايين المحتضرين ، والجوع هو الذي يدفع الهند الى المغزل . . ان الشاعر يحيا لغده ويريدنا على الاقتداء به . فهو يمثل لاعيننا المأخوذة صورة الطيور الجميلة التي ترسل بكرة غناءها بالحمد ، او تحلق في الاجواء . ليست هذه الطيور خماصاً ، فان لها كل يوم رزقها ، وهي تحلق محمولة على اجنحة مرتاحة تجدد دمها ليلاً . لكن نفسي عرفت الالم اذ رأيت طيوراً لاقوة فيها ، فهي لاتجد رغبة حتى في تحريك اجنحتها قليلا . ان الطير الانساني، تحت سماء الهند، يستيقظ اضعف منه حين اوهم انه يأخذ من الراحة حظه ، لان حياة ملايين من الخلق ارقٌ ابدي، او سبات ابدي . . رأيت ان من المستحيل تسكين آلام الجائعين بنشيد من اناشيد الشاعر « كبير » . . اعطهم عملاً يستطيعون به ان يجدوا ما يأكلون .

أتسألون : ولكن علام انت تنسج ولست مضطراً لان تشتغل كي تعيش ؟ ذلك اني آكل ما ليس لي واعيش من سلب ابناء وطني . إقفوا اثر كل النقود التي تصل الى جيوبكم تعرفوا صدق ما اقول . . يجب ان تغزلوا . ليغزل كلّ منا ! ليغزل تاغور مثل غيره ! وليحرق ثيابه الاجنبية . . هذا هو الواجب اليوم . إن الله يهتم بالغد . وكما ورد في « الجيتا » : اعمل العمل الحق ! »

كلمات مظلمة فاجعة . ذلك هو البؤس الانساني ينتصب قائماً امام رؤيا الفن ويصرخ في وجهه قائلاً : « إجرأ على انكاري ! » مَن لا يفقه عاطفة غاندي المضطرمة ، ومن لا يشاطره اياها ؟

ومع ذلك فان في هذا الردّ الدال على انفة النفس المتألمة ما يبرّر بعض مخاوف تاغور : هي اذاً دعوة بلهجة الامر الى الخضوع لنظام الحرب . إعمل دون جدال بقانون السوادشي الذي ينصّ اول بنوده بأن على كل هندي ، كل يوم ، ان يستعمل المغزل .

لا مراء في ان النظام فرض لازب في الجهاد الانساني . لكن المصيبة هي ان المكلفين بأنفاذه ، نعني اعوان الزعيم الاكبر ، هم على الاغلب ضيقو الافهام ، يتوهمون ويوهمون ان ما ليس إلاّ واسطة لبلوغ الغاية هي الغاية او المثل الاعلى . ان القاعدة تستهويهم بضيقها ، لانهم لا ينعمون الا في السبل الضيقة . وهكذا اصبح السوادشي في نظر اعوان غاندي نصاً جازماً ، واتخذ صفة القداسة . وقد نشر احد كبار الاعوان او المريدين ، وهو د . ب . قالقار ، من اساتذة تلك المدرسة الحبيبة الى نفس

غاندي : الصاتياغرا اشرام في سبرماتي (احمداباد) مؤلفه « انجيل السوادشي » مستهلاً بتصديق غاندي عليه واجازته .. وهذا الكتاب موضوع لجمهور العامة ، فلننظر اذاً في العقائد التي يتلقاها الشعب عن احد القائمين عند منبع المذهب الاصلي :

« ان الله يتجلى ، زمناً بعد زمن ، لفداء العالم .. ولكن ليس تجليه في صورة البشر قاعدة ثابتة لا تتغير . فقد يتجلى ايضاً في صورة مبدء مجرد او رأي جليل ينفذان الى صميم الكون .. اما المجلى الجديد فهو الجيل السوداشي . »

ويسلم صاحب هذا الانجيل بأن هذا التوكيد حقيق بابتسام السخرية اذا لم يكن ثمة في السوادشي إلاّ دعوة الى مقاطعة المنسائج الاجنبية . لكن هذه المسألة الطفيفة ليست إلاّ تطبيقاً عملياً « لمبدء ديني واسع يقصد به انقاذ العالم باسره من الشحناء وتحرير البشرية . » وخلاصته واردة في كتب الهند المقدسة ، واليكها :

« ان عقيدتك الخاصة ، وان تكن خلواً من المزايا ، هي خير لك وابقى . ان عملك بعقيدة ليست لك ، محفوف ابداً بالمخاطر . لا يعرف السعادة الا الذي ينصرف بكليته الى واجباته الخاصة به . »

والقاعدة الاساسية في السوداشي تقوم على الايمان « باله قد كفل للعالم اسباب السعادة الى الابد . ان هذا الاله جعل كل امرىء في البيئة التي توافقه لانجاز عمله الخاص له . فينبغي ان تلتئم اعمال المرء جميعاً ومنزلته الخاصة في هذه الحياة الدنيا .. وكما

انه لاخيار لنا في مولدنا واسرتنا وموطننا، فكذلك لاخيار لنا في ثقافتنا . ليس لنا إلا الرضاء بما قسم الله لنا، فيجب ان نرضى بتقاليدنا على انها من عند الله، وان نعمل وفقاً لها . ان جحودها لاثمٌ كبير».

يستدل من هذه النصوص الدينية انه ليس لامرئ في وطنه ان يهتم لشؤون البلاد الاخرى :

« ان المؤمن بالسوداشي ، الصحيح الايمان ، لا يأخذ على نفسه قط هذا العهد الباطل وهو ان يصلح الكون ، لاعتقاده ان الكون مدفوع ولن يزال، في سنن سنّها الله . وليس لنا ان نرجو من شعب ان يموّن الشعوب الاخرى ويكفي حاجاتهم ، ولو كان لعمل الخير او حباً بالانسانية . ثم إن يكن ذلك ممكناً فهو غير مستحب .. ان المؤمن بالسوداشي حقاً وصدقاً لا ينسى ان كل انسان اخوه، لكنه مسؤول اولاً ان ينجز العمل الذي يقضي به مولده .. وكما اننا مكلفون بخدمة الزمن الذي وُلدنا فيه ، فكذلك نحن مكلفون بخدمة الوطن الذي ولدنا فيه مهما يكلف ذلك .. ينبغي ان نسعى الى تحرير انفسنا عن طريق ديننا الخاص وثقافتنا الخاصة . »

ولكن أيجوز، على الاقل، لأمةٍ من الامم، أن تنمي كل مالديها من اسباب الى التبسط، كالتجارة والصنائع ؟ كلا ما اشنع الرغبة في اتحاف الهند بعامل كبيرة ! اذ بهذا نحمل اناساً آخرين على مخالفة « دارما[1] » هم الخاصة . ومن الجناية ان تصدر امة محاصيلها كما ان من الجناية ان تستورد محاصيل غيرها من الامم، لان « الدعوة او التبشير امرٌ مكروه عند العاملين

(١) اي معتقدهم والحالة التي قدّرها الله لهم .

بالسوداشي » . والنتيجة المنطقية من هذه القاعدة (نتيجة مفاجئة لكل اروبي) هو انه لاينبغي لشعب أن يصدر محاصيله ولا افكاره . واذا كانت الهند فيما مضى قد انحطت أيّما انحطاط فهو تكفيرٌ عن ذنب الاسلاف الاولين الذين كانوا على اتصال بمصر وروما ، وهذا الذنب اقترفته جميع الاجيال التي استمرّت على ضلالها ولم تعرف التوبة . على كل امة ، بل على كل طائفة ان تلزم خطة حياتها الخاصة وان تعيش بمحاصيلها وتقاليدها الخاصة :

« لنتحاشَ الاختلاط بالذين تختلف عاداتنا الاجتماعية عن عاداتهم .. لا ينبغي لنا ان نربط حياتنا بحياة الافراد او الشعوب الذين لا يلتئم مثلهم الاعلى ومثلنا الاعلى .. كل امرىء جدول ماء . وكل أمةٍ نهر . فيجب ان يسيل كلاهما في مسيله ، صافيين من غير دنس ، حتى يبلغا بحر النجاة ، حيث تمتزج الانهار والجداول جميعاً . »

هو اذاً فوز العصبية القومية ، بأصرح انواعها واضيقها : إقبعْ في عقر دارك . اقفل الابواب كلها . لاتغيّر شيئاً . احتفظ بكل مالديك . لا تبع « الخارج » شيئاً ولا تشتر منـه شيئاً . تطهّر . هو اذاً انجيل رهبان دير في القرون الوسطى [1] . وغاندي

(١) وانك تتجد مع ذلك في مواضع مختلفة نصوصاً اخلاقية جـديرة بالاعجاب . لا انتقام قط ! « ما مضى فات . الماضي لا يُردُّ : لقد اصبح جزءاً من الابد ، وما لامريء عليه من سلطان . لا تفكّر بأن تثأر لنفسك جزاء المظالم والسيئات التي اصابتك في الماضي . ليدفن الماضي موتاه ! ولنعمل في الحاضر الحيّ مسترشدين بقلبنا ، مهتدين بالله » . ان لهذا الكتاب من فاتحته

صاحب القلب الكبير يأذن بأن يوضع عليه اسمه !

هنا سر انفعال تاغور الشديد لمرأى اولئك المتهوسة ، متهوسة القومية الرجعية ، الذين يزعمون انهم يومئون الى العصور فتقف ، وانهم قادرون على حبس نزعات الفكر في قفص ، وعلى قطع كل جسر يصل بين الهند والغرب [1]. والحق ان هذا لم يكن رأي غاندي . فقد كتب الى تاغور يقول : « السوداشي رسالة الى الناس كافة . » (فهو اذاً يحسب للانسانية حساباً ولا يكره الدعوة او التبشير) . ويقول ايضاً : « ليس القصد باللامعاونة مناوءة الغرب ، بل مناوءة المدنية المادية وما ينشأ عنها من استغلال الضعفاء . » (فهي اذاً لا تحارب الا ضلالات الغرب

الى خاتمته صفاء جبل من الثلج .

(١) ومما يجعل هذه الكتابات وامثالها ابلغ في التأثير على تاغور انه كانت بين اشرم غاندي (الذي نجم منه هذا الانجيل) وبين صانتينكتان تاغور منافسة اجتهد الزعيمان كثيراً لتحاشيها . ويلاحظ هذا في مقالة نشرها غاندي في « الهند الجديدة » ٩ فبراير ١٩٢٢ - مظهراً استنكاره اقوالاً عن الاشرم عزاها اليه صحافي ، يشتم منها الزراية على صانتينكتان . فهو يحتج مصرحاً عن اجلاله لدار تاغور العلمية . لكن في كلامه شيئاً من التنكيت الخفي : « لو اضطررت الى المفاضلة بين المدرستين لفضلت صانتيكتان ، رغم رياضة الاشرم ونهوض ساكنيه باكراً . ان صانتيكتان هو الابن البكر ، وهو اكبر سناً من الاشرم واكثر علماً . ثم يقول غامزاً : « ليحذر ساكنو صانتينكتان ! ان الاشرم الصغير يعدو مسرعاً . »

وتعمل لمصلحة الغرب نفسه). ثم يقول : « هو اعتزال في انفسنا». (لكنه اعتزال الى حين ، لاستجماع قوانا قبل جعلها في خدمة الانسانية) . « ينبغي ان تتعلم الهند كيف تحيا قبل ان تتعلم كيف تموت في سبيل النوع البشري . . » ولا يرفض غاندي قط معونة الاوربيين ، ولكن بشريطة ان يقبلوا اولاً المثل الاعلى المنجي الذي يعرضه على الناس كافة .

هذه حقيقة رأي غاندي ، وهو ارحب جداً واقرب الى الروح الانساني، بل الجامعة العالمية العامة[1] ، من الانجيل الذي نُشر في ظله الظليل . اذاً فعلام اجازه ؟ وكيف امكن مريديه من حصر مثله الاعلى الاجلّ ، الذي يُعرض على الدنيا باسرها ، في حدود ضيقة من تيوقراطية هندية ؟ ياللتلامذة المخوفين ! اللهم احفظ الرجل العظيم من هؤلاء الاصدقاء الذين لا يفقهون الا شطراً من مذهبه ، فاذا دونوه افسدوا ما فيه من وحدة

---

(١) ورأيي ان غاندي هو مثل تاغور في سعة مذهبه وشموله ، ولكن على صورة اخرى . هو عالميّ بوجدانه الاخلاقي ، بينما تاغور عالميّ بمداركه وذكائه . ان غاندي لا يخرج احداً من مشاركة الصلاة والعمل اليومي . كذلك كان المسيح لا يفرق بين اليهود والوثنيين ، ولكن يلزمهم جميعاً رياضة اخلاقية واحدة . وهذا ما يتوخاه غاندي . وهنا ضيق دائرته ، لا بالقلب وقلبه رحب كقلب المسيح ، بل بروح الزهد الفكري والتجرد المعنوي (كذلك كان امر المسيح) . ان غاندي عالميٌ من طراز القرون الوسطى . نحن نجلّه ، لكننا مع تاغور .

وتناسب ، والوحدة رأس النعم التي تنعم بها علينا نفسه الحية .

وليس هذا كل ما في الامر . فان هؤلاء الذين يحيون على كثب من الامام ، نعني صحابته الادنين ، لن يزالوا موسومين بسمات روحه الشريف . ولكن ما قولك في صحابة صحابته ، وتلامذة تلامذته ؟ ثم ما ظنك بتلك الجماهير من العامة الذين لا يصل اليهم إلا اصداء مشوهة ؟ ما ذا يعون من مذهبه في تزكية النفس والتجرد البديع ؟ يعون الصورة الظاهرة المادية : انتظار (كأنتظار المهدي) أن يحصل السواراج (الحكم الذاتي) بالمغزل . هو نكران كل ترق . وليس تاغور بمخطئ اذ يبدي اغتمامه لما يُظهره من عنف دعاةُ اللاعنف (وما غاندي نفسه بمنزه من ذلك) ازاء الامتعة الغربية . لقد احتاط غاندي بقوله انه « يخرج من ساحة الجهاد اذا آنس فيه بغضاً للانكليز » وانه يجب ان نحب الذين نناوءهم ونكره ظلمهم وجورهم . « أبغض الشيطانية وانت تحب الشيطان » . لكن هذا مما يدق على افهام العامة . وكلما كان زعماء الحركة يذكرون في كل مؤتمر بفظائع الانكليز وعدم وفائهم ، وبمذابح البنجاب والخلافة ، كانت الاحقاد تتجمع وراء السد ، ويا للمصيبة اذا السد انفجر! ولما ترأس غاندي في اغسطس ١٩٢١ حريق الانسجة الاجنبية ببمباي ، راداً توسلات اندريوس ، صديق تاغور ، في مقالته « الهدم وقيمته الاخلاقية » كان يعتقد انه بهذا « يصرف

ضغينة الشعب عن الاناس الى الاشياء . » لكنه لم يسمع الضغينة تقول في سرها : « اجل ! الاشياء اولاً ، والاناس بعد ذلك . » ولم يقدّر ان الشعب في هذا البلد نفسه (بمباي) بعد اقل من ثلاثة اشهر سيزهق نفوساً . ان غاندي طاهرٌ قديس ، خلوٌ من الشهوات الحيوانية الرابضة في صدر الانسان . فهو لا يفكر بانها هنا ، تصغي اليه وتلقف اقواله . اما تاغور فكان ابصر بالعواقب . وقد بدت له غفلة دعاة اللامعاونة الذين كانوا لا يفتأون يذكرون العامة بسيئات اروبة دون قصد سيء ، داعين الى اللاعنف ، بينما هم في الحقيقة يُشربون روح الشعب سُمّ الحمّى التي ستعقب حتماً اشدّ العنف . لم يكن هذا ليخطر ببال هؤلاء الحواريين الذين لا يجدون اثراً للعنف في قلوبهم . بيد انّ من يقدم على عمل عامّ ينبغي له ان يصغي الى قلوب الناس ، لا الى قلبه . حذار من الشعب ! ان وصايا غاندي الاخلاقية لا تكفي لكبح جماحه . وقد لا يكون ثمة إلاّ وسيلة واحدة ، بها يطيع العامة غير مترددين ، هذا الامام الهندي ويعملون بدستوره الصارم : أن يسلّم بانه إلهٌ كما يرجو في أقصى ضميرهم اولئك الذين يمثلونه في صورة «شري كرشنا». لكن صدق غاندي وضعته لا يأذنان بذلك .

اذاً فلم يبق الا الصوت الفذّ يرسله اطهر الناس نفساً ، فيعلو على زمجرة هذا الاقيانوس البشري . حتّامَ يظلُّ قادراً على إسماع صوته ؟ انها لفترة عظيمة مفجعة !

٤

في عام ١٩٢١ خطا الجهاد خطى سريعة ، وكانت السنة من بدايتها الى نهايتها ملأى بالعثرات والهزاهز العنيفة ، حتى ان غاندي نفسه لم يسلم من غوائلها .

كانت الثورة في اختمار ، وكانت فظاظة الحكومة في قمعها تقرّب اجل اضطرامها . فانفجرت في ماليغاؤن من مقاطعة ناسيك فتنٌ دامية ، ونشبت في جيريديه من مقاطعة البيحار قلاقل . وفي اوائل مايو ١٩٢١ حدثت في اسام حوادث اعظم خطراً . فان ١٢ الفاً من «الكولي» الفلاحين اضربوا عن العمل في مزارع الشاي ، وبينما هم يهجرونها هاجمهم « الغوركا » الذين في خدمة الحكومة . واضرب موظفو الخطوط الحديدية والبواخر في البنغال الشرقي اضراباً عاماً دام شهرين ، احتجاجاً على اعمال الحكومة . وكان غاندي لا يزال عاملاً على التوفيق بين الفريقين ، فكانت بينه وبين نائب الملك اللورد ريدنغ ، في شهر مايو ، مقابلة طويلة عرض اثناءها وساطته بين الحكومة وبين الاخوين علي ، المتهمين بالقاء خطب يحضان فيها على استعمال العنف ، فوعده اصدقاؤه المسلمون وعداً صريحاً بانهم لن يدعوا الى العنف قط .

لكن هذا لم يضعف من شأن الحركة ، واستمرّ العنصر

الاسلامي في الهند سبّاقاً الى أجرأ الاعمـال واخطرها . وفي ٨ يوليو اجتمع مؤتمر الخلافة لجميع الهند، في كاراشي ، فاعاد ذكر المطالب الاسلامية معلناً « انه لا يجوز لمسلم شرعاً ان يخدم في الجيش او يساعد على التجنيد » متوعداً الحكومة اذا حاربت حكومة انقرة بتقرير العصيان المدني والجمهورية الهندية في دورة نهاية السنة لمؤتمر جميع الهند . وفي ٢٨ يوليو اعلنت لجنة مؤتمر جميع الهند المجتمعة في بمباي (اول لجنة منتخبة وفقاً للدستور الجديد) انه يجب على الهنود كافة ان يقاطعوا ولي العهد (البرنس دوغال) الذي يزور الهند عما قريب ، وقررت مقاطعة الانسجة الاجنبية تماماً قبل حلول ٣٠ سبتمبر ، وحثت على العناية بالنسج الوطني جاعلة له نظاماً خاصاً ، وحضت على ترك المسكرات رغم عضد الحكومة لتجارها وحمايتها اياهم . لكن المؤتمر كان اكثر اناةً وأرشد من مسلمي الخلافة ، فذمّ الفتن ومحدثيها ، وصرف موقتاً عن العصيان المدني ، ووسع نطاق الدعاية الى اللاعنف .

وفي اغسطس أثار الموبلاه فتنة هوجاء استمرت بضعة شهور . فهمّ غاندي ومولانا محمد علي بالرحيل من كالكتا الى مالابار لتسكين الفتنة . لكن الحكومة لم تأذن بذلك، والقت القبض في سبتمبر على مولانا محمد علي واخيه مولانا شوكت علي وكثير من اعيان المسلمين بتهمة الحضّ على العصيان المدني الذي قرروه في مؤتمر الخلافة . حينئذ ثبّتت لجنة الخلافة المركزية

في دلهي ذلك القرار، وصدّقته بقوةٍ مئاتٌ من الجامع الاسلامية.
وفي ٤ اكتوبر اعلن غاندي تكافله واخوانه المسلمين، ونشر بالاتفاق مع خمسين من كبار اعضاء المؤتمر بياناً يجهر فيه بحقِ كلِّ وطني أن يبدي رأيه في اللامعاونة، ويؤكد انه لايجدر بالهندي ان يخدم، سواءٌ بصفته موظفاً مدنياً ام عسكرياً، الحكومة التي أحطت الهند من الوجهة الاخلاقية والاقتصادية والسياسية، وينادي ان الانفصال عنها فرضٌ على الهنود كافة. حوكم الاخوان علي في كاراشي وحكم عليهما وعلى شركائهما في التهمة بالحبس الشديد مدة سنتين. فكان جواب الهند على هذا الحكم حماسة اعظم من ذي قبل. وفي ٤ نوفمبر صدّقت لجنة مؤتمر جميع الهند المنعقدة بدلهي بيان غاندي. وهكذا خطت اللجنة الخطوة الفاصلة، فأجازت لكل مقاطعة إنفاذ العصيان المدني بدأً برفض الضرائب، ملقيةً عليها تبعة اعمالها. وشرطت ان يسلم العصاة صراحةً ببرنامج السوادشي واللامعاونة ويعملوا به، ومن مواده الغزل اليدوي وعهد اللاعنف. فاللجنة اذاً عملت، بارشاد غاندي، على التوفيق بين الثورة وبين روح النظام وشريعة التضحية. ولأظهار هذه الشريعة بوضوح، انبأت القائمين بالعصيان المدني وعائلاتهم انه لا ينبغي لهم ان يتكلوا على معونة المؤتمر المالية.

كان العصيان الاكبر على وشك الابتداء لما نزل ولي العهد (البرنس دوغال) ببماي في ١٧ نوفمبر. فأنفذت الطبقات الوسطى

والدنيا أمر الاضراب عن استقباله. لكن الاغنياء والپارسي وكبار الموظفين لم يحسبوا لذلك الامر حساباً. فهاتهم الغوغاء غير راحمين النساء. واتسع نطاق الفتنة بسرعة، فهدمت بيوت وسقط جرحى وقتلى. وهو الانفجار الوحشي الوحيد الذي حدث في الهند، حيث أدّي الهرتال (الاعتصاب الديني) الذي قُرّر، حقّ أدائه — في أمنٍ وسلام. لكن غاندي على حدّ قوله كان «كمن اصيب بسهم في احشائه». فلما بلغه اول الانباء عن القلاقل خفّ الى موضع حدوثها، فهتف له الثائرون، فزاد هذا في عذابه. وقرّع الجماهير بشدة آمراً اياهم بان يتفرقوا. وقال ان للپارسي اذا شاءوا، ان يحتفوا بالامير، وليس ثمة مايبرر هذه الاعمال العنيفة المنكرة. فسكت الناس، لكن الفتنة اضطرمت في امكنة اخرى. ان عناصر الشر خرجت من مكامنها في بطن الارض، وليس من المستطاع ان يُعاد الى الرشد في لحظة واحدة ٢٠ الف رجل أثيروا. ومع ذلك فان الفتنة ظلت محصورة، وان اقلّ ايام الثورة في اروبة ليربو على تلك الفتنة الهندية اضراراً. فارسل غاندي الى اهل بمباي وجماعة اللامعاونة نداء حزيناً تناقلته الصحف جميعاً، واعلن ان اشباه هذه الحوادث تجعل العصيان جماعةً، من المستحيلات في الحاضر، وارجأ انفاذ الامر الآنف الى اجل غير مسمى. وقصاصاً لنفسه على فظائع بني قومه فرض عليها الصوم الديني اربعاً وعشرين ساعة كل اسبوع.

كان ذعر اوروبي الهند من اضطرابات بمباي اقل من ذعرهم لاجماع الهنود على الهرتال الصامت اجماعاً معجباً . فلجـوا في حض نائب الملك على ان يعمل ، فاتخذت حكومات المقاطعات تدابير قاسية لم تراع فيها للقانون حرمة . وأخرج قانون قديم سُن سنة ١٩٠٨ لمعاقبة الفوضويين والجمعيات السرية ، فاتخذته الحكومة ذريعة للقضاء على جماعات متطوعة المؤتمر والخلافة . والقي القبض على آلاف من الخلق ، فكان الجواب ان آلافاً من المتطوعة الجدد سجلوا اسماءهم في القوائم العامة . وصدر الامر الى لجان المقاطعات بأن تنظم فرق المتطوعة تنظيماً متماثلاً . و قُرّر ان يكون الرابع والعشرين من دسمبر ، وهو يوم زيارة الامير كلكتا ، حرتالاً . وفي اليوم الموعود اجتاز ولي العهد كلكتا وهي قفر من اهلها .

في تلك الساعات التي كأنها تضمر الثورة ، افتتح باحمد أباد مؤتمر جميع الهند الوطني ، فكان له جـلال المجلس الفرنسي عام ١٧٧٩ ، جلاله المؤثر . وكان رئيس المؤتمر قد سُجن يومئذ فأوجز الاعضاء في الجدل . واعاد المؤتمر الكرة مقرّراً مذهب اللامعاونة ، حاثاً الوطنيين جميعاً على التطوع كي يسجنوا ، داعيـاً الشعب الهندي الى عقد اجتماعات في كل مكان ، معلناً ايمانه بالعصيان المدني الذي يوازي بعظيم فعله العصيان المسلّح ، ويفضـله من الوجهة الانسانية . ونصح بتنظيمه متى اصبح السواد الاعظم مُشرباً اساليب اللاعنف . وكان المؤتمر يعلم ان اغلب اعضائه

سوف يلقى القبض عليهم في نهاية الدورة ، فخلع على غاندي سلطته بتمامها ، اي جعله حاكماً بأمره ، وترك له الخيار في تعيين خلفه . وهكذا خُصّ الزعيم بالسلطان المطلق على سياسة الهند غير مُقيّد إلا بعدم ادخال تحويرٍ ما على قانون الايمان الوطني ، وبأن لا يعقد صلحاً مع الحكومة إلا برضاء لجنة المؤتمر . وكان فريق من الاعضاء قدموا اقتراحاً مؤداه وجوب استعمال العنف لنيل الاستقلال التام باسرع ما يمكن . لكن الاغلبية ردّته محافظة على مبادىء غاندي .

واظهرت الاسابيع التي تلت الحماسة الدينية التي تملكت الهند من اقصاها الى اقصاها . فتقدم ٢٥ الف رجل وامرأة الى السجون جذلين مستبشرين .

وتأهب بعدهم آلاف آخرون لأثبات صدق ايمانهم . وهمّ غاندي للمرة الثانية بأن يصدر امر العصيان المدني جماعةً . وكان رأيه ان يبدأ بلدٌ مختار جدير بأن تقتدي به سائر البلدان ، فيه وجد مذهبه ارضاً خصبة ، نعني باردولي من مقاطعة بمباي [1] . فأنبأ غاندي بذلك نائب الملك في كتاب مفتوح (٩ فبراير ١٩٢٢) هو من باب المجاملة ، لكنه ايضاً اعلان حرب صريح . يقول فيه انه زعيم الحركة المسئول وان باردولي هي الفرقة الاولى من جيش العصيان الهندي على الحكومة التي اعتدت اعتداءً فظاً

---

(١) ١٤٠ قرية سكانها ٨٧٠٠٠ نسمة .

على حرية القول والاجتماع والنشر .

ويمهل غاندي اللود ريدنغ سبعة ايام ليقوّم اعوجاج سياسته وإلاّ فقد أصدر الامر : ستبدأ الثورة [1] .

ما كادت تُرسل الرسالة الى نائب الملك ، واذ بفاجعة تحدث في « شوري شورا » من اعمال غوراخپور ، جاءت افظع من كل ما سبق . كانت الجماهير تسير في موكب ، فهاجمتها الشرطة فقابلها الاهلون بالمثل ، فاصلتهم الشرطة ناراً حامية ثم اعتصمت في الطانا [2] فاحرقته الغوغاء . وعبثاً سأل المحصورون رحمة وغفراناً ، فقد قُتلوا وأُحرقوا . ان رجال الشرطة هم البادئون بالشر ، ولم يشترك في تقتيلهم متطوع واحد من متطوعة اللامعاونة . يقدر غاندي اذاً ان يبرأ منهم . لكنه اصبح حقاً وجدان الهند ، فجريمة يقترفها أيّ هندي تلطخه هو بالدم ، كأنه حمّل نفسه آثام امته قاطبة . كان وقع هذه الحادثة موجعاً ، فوقف للمرة الثانية الحركة التي أمر بها من قبل . ان الموقف اشد حراجة الآن منه بعد فتنة بمباي . ذلك انه بعث منذ بضعة ايام بأنذاره الى نائب الملك ، فكيف يسترده اليوم دون ان يعرض نفسه للسخرية ؟

---

(١) انبأت جريدة « الهند الجديدة » الامة الهندية بهذا الانذار قائلة : انه لن يُستعاد الامر الصادر اذا لم يجب نائب الملك على رسالة غاندي ، وان العصيان المدني سوف يتمّ على كل حال ، حتى لو ان الأغلبية عدلت عنه الآن

(٢) مركز الشرطة

ان الكبرياء (ويلقبها غاندي بالشيطان) تسوّل له ان لا يفعل . لكن هذا على الضدّ يشدّد عزيمته .

وفي ١٦ فبراير ١٩٢٢ ظهرت في « الهند الجديدة » وثيقة من اعجب وثائق هذه السيرة الرائعة ، هي بمثابة اعتراف على رؤوس الاشهاد . وكان اول ما صعد من اعماق ذله وضراعته كلمات تهليل وحمدٍ لله على انه وضعه واذلّه :

« لقد كان الله بي رحيماً ، جدّ رحيم . فانذرني مرةً ثالثة بان الهند لمّا تحصل على جوّ الحق واللاعنف الذي به ، وبه وحده ، نقدر ان نبرر العصيان المدني جماعةً ، العصيان الذي يصح نعته بالمدني ، لانه رفيق وضيع رشيد يقوم به الناس طوعاً ، ولأنه محب لا يضمر سوء ولا يحمل حقداً . انذرني مرةً اولى سنة ١٩١٩ لما ابتدأ الهياج حول قانون رولات . لقد ضلت يومئذ احمداباد وفيرامغام وخدا . وضلت أمرتسار وقاسور . فانقلبتُ على عقبي وسميت خطيئتي غلطة حسابية حملايائية ، واذللت نفسي امام الله والناس . لم اقف العصيان المدني جماعة فحسب ، بل وقفت ايضاً عصياني انا . وفي المرة الثانية انذرني بحوادث بمباي التي شاء الله ان اشهدها بعيني رأسي . . فوقفت العصيان المدني الذي كنت اخترت باردولي لتبدأ به . كانت المهانة آنئذ اعظم لكنها افادتني واحسنت اليّ . انا على يقين من ان الوطن انتفع بهذا التأجيل ، لان الهند ظلت بذلك ممثلة الحقيقة واللاعنف . لكن المهانة هذه المرة كانت اشد وقعاً . . إن الله تكلم في شوري شورا بجلاء . . . ان عنف الغوغاء في الساعة التي تريد الهند ان تجلس على عرش الحرية باللاعنف ، لدلالة شؤم مؤسفة . يجب ان يسيطر جماعة اللاتعاون على عنف الشعب ، ولن يتيسر لهم هذا إلا متى سيطروا على رعاع الهند اجمعين » .

(١) مقالة « جناية شوري شورا » .

اذاً فهو في ١١ فبراير جمع بباردولي لجنة المؤتمر التنفيذية واطلعها على حيرته وقلق نفسه . ان عدة من رفاقه لم يكونوا واياه على وفاق ، لكن الله انعم عليه ، كما يقول ، بأن لقيَ منهم هذا القدر من المسامحة والاحترام . لقد اكتنهوا اسباب حيرته ورضوا بناءً على الحاحه ان يؤجلوا العصيان المدني ، داعين الجمعيات المنظمة الى ايجاد جوٍ صافٍ من اللاعنف اولاً . ثم يقول غاندي :

« اعلم ان عملي هذا لن يُعدّ من الرشد في السياسة ، لكنه رشد من ناحية الدين . ان الوطن يستفيد من ضراعتي واعترافي بخطأي . والفضيلة الفريدة التي تتوق الى اكتسابها نفسي هي فضيلة الحق واللاعنف . است ادعي قط قوى ومزايا معجزة ، ولا هوى لي في شيء من ذلك . اني احمل جسداً كجسد اضعف الخلق في تعرضه للفساد والضلال . وان لخدماتي حداً لا تتعداه لكن الله بارك فيها حتى اليوم رغم نقائصها . ان الاقرار بالخطأ هو كضربة مكنسة . واحس الآن اني اقوى من ذي قبل لاني اقررت بخطأي ، ولتستفيدنّ قضيتنا من نكوصها هذا . . لم يبلغ رجل غاية قط باصراره على الزيغ عن السبيل الأقوم . . يردون عليَّ قائلين ان لا صلة لجناية شوري شورا بالعمل المنويّ في باردولي . انا لا يداخلني ريب في ذلك ، لأن اهل باردولي اكثر الهنود حباً بالسلام . لكن باردولي ليست سوى نقطة ، ولن يوفق عملها ما لم يكن بينها وبين سائر اجزاء الهند تناسب كليّ . . ان حبة من السليماني في جرة حليب تسممها . . ان شوري شورا سمّ زعاف . . وليس هذا مثلاً فذاً ، بل هو عارضٌ متفاقم من عنف العامة المنتشر هنا وهناك . . . ان العصيان المدني الصحيح لا يكون مصحوباً بأقل هياج . هو تأهبٌ للعذاب الصامت . فعله عجيب وإن يكن رفيقاً لا يكاد يُدرك . . ان فاجعة شوري شورا إصبع دالة على طريقنا . فاذا كنا نريد ان لا يخرج العنف من اللاعنف

فيجب ان ننقلب على اعقابنا معجلين لترجع جوّ السكينة في وطننا ، وان لا نفكر قط بالعودة الى العصيان المدني جماعة قبل ان نتثبت من ان السلام سيظل سائداً رغم كل شيء.. لخصمنا ان يتهمنا بالجبن! فخيرٌ لنا ان يُساء الظن بنا من ان نخون عهد الله.. »

وقد شاء الرسول أن يكفر هو عن الدم الذي اراقه آخرون :

« يجب ان اطهر نفسي . يجب ان اكون بحالة استطيع معها ان أحسن تسجيل اخفّ التغيرات الطارئة على الجوّ المعنوي الذي يحيط بي(١) يجب ان اكون في صلواتي اصدق واكثر خشوعاً . ليس ابلغ في تزكية النفس من الصوم الحقّ ، به تتجلى ذات المرء بتمامها ، ويسيطر الروح على الجسد.. »

لهذا قضى غاندي على نفسه ، مُشهداً الملأ ، أن يصوم خمسة ايام صياماً متواصلاً. وليس لأحد ان يقتدي به . يجب ان ينفرد بمعاقبة نفسه . انه كان جراحاً غير ماهر . فاما ان يعتزل واما ان يكتسب خبرةً احكم واثبت . ان صيامه توبة وقصاص على السواء ، له ولاصحاب شوري شورا الذين أثموا واسمه على السنتهم. ان غاندي يودّ لو يتعذب وحده من اجلهم ، لكنه يشير عليهم بأن يسلموا انفسهم للحكومة ويعترفوا بذنبهم . ذلك انهم نالوا القضية التي ارادوا ان يخدموها ، بشرٍ عظيم :

« احب ان احتمل كل المهانات، وكل انواع العذاب ، والنفي والطرد بل الموت ايضاً ، لأصرف حركتنا عن ان تصبح مظهر عنف او ذريعة الى العنف. »

---

(١) ليتنبه القراء الى هذا النور المرسل على ما في نفس غاندي من قوة خفية ، تلك النفس التي ترتسم عليها خلجات الشعب الهندي جميعاً .

قلّ ان تجد في تاريخ الوجدان البشري صفحات شريفة بهذا المقدار . ان قيمة ذلك العمل المعنوية لا تُقدّر . لكنه من الوجهة السياسية يدعو الى الحيرة . وقد اعترف غاندي نفسه بأن عمله «من الوجهة السياسية يصح عدُّه خرقاً وبعداً عن الصواب». فأن من الخطر أن تشد لوالب الامة ، فهي تلهث ترقباً للعمل المقرّر ، وان ترفع ذراعاً لاصدار الامر ، حتى اذا تحركتْ هذه الآلة الضخمة — وقفتها ، لامرةً واحدة بل ثلاثاً . انك بهذا توهن لوالب الآلة ، وتحطم اندفاع الامة .

ولما اجتمعت لجنة المؤتمر بدلهي في ٢٤ فبراير ١٩٢٢ لم يتوصل غاندي الى حملها على تصديق القرارات المتخذة في باردولي إلاّ بعد معارضة شديدة . ووقع الخلف بين جماعة اللامعاونة . غاندي يرى من الواجب أن يُبالغ في تنظيم الحركة قبل متابعة السير ، وقد جاء بخطة اختطها لتعمل الامة بها . لكن نفراً كثيرين من رفاقه كان يغيظهم هذا البطء والتأجيل ، فاحتجوا على تسويف حركة العصيان ، قائلين ان فيه قتلاً لحماسة الامة . وقدم فريق من الاعضاء اقتراحاً بتأنيب اللجنة التنفيذية وإلغاء الاوامر التي اصدرتها . ومع ذلك فقد فاز غاندي ، إلاّ انه كابد الماً شديداً ، ولم ينخدع بالاغلبية التي اتبعته ، لأنه لم يثق في صدقها . وما اكثر الذين عضدوه باصواتهم ، فاذا ولّى ظهره سموه حاكماً بامره (ديكتاتوراً) . كان يعلم انه ووطنه على خلاف — قال

ذلك بصراحته المعهودة في ٢ مارس ١٩٢٢ :

« ان في الاغلبية كثيراً من نزعات العنف الخفية سواء الصادرة عن فكر وروية ام التي لا روية فيها . لذلك دعوت الله ان يعاقبنا بخسران مبين . قدّر لي ان اكون دائماً في أقلية . ففي افريقية الجنوبية بدأت والاجماع في جانبي ، ثم نزلت الى اقلية مؤلفة من ٦٤ ، فمن ١٦ صوتاً ، ثم صعدت كرة اخرى الى اغلبية عظيمة . ان خير الاعمال واوطدها قد تمّ في بيداء الاقلية. اني اخاف الاغلبية واكره عبادة السواد الاعظم الذي لارأي له ولا حكم . واني لاجد الارض اثبت تحت قدمي اذا بصقوا عليّ ... لقد حذرني صديق لي ناصحاً بان لا استغلّ « ديكتاتوريتي » . ما ابعدني عن هذا ، بل اني لاتساءل عما اذا كنت غير ممكّن الناس من « استغلالي» انا . واقرّ بأني اخاف اليوم هذا اكثر من قبل . لا سبيل الى النجاة إلا بعدم استحيائي، وقد اسمعت رفاقي في المؤتمر ان طبعي لا يقوّم ، فكلما زلّت الامة لابدّ لي من الاقرار بزلاتها . لا سلطان عندي في هذه الدنيا إلا « للصوت الخافت الصامت » الذي في باطن كل منا . ولو اكرهت على ان اكون في الاقلية المؤلفة من واحد لما خشيت ان اكون في هـذه الاقلية القانطة . تلك هي وحدها خطة الصدق عندي . اصبحت اليوم اشدّ حزناً ، واحسبني اعقـل ايضاً . ارى ان اللاعنف عندنا سطحيّ ، فنفوسنا تشتعل سخطاً ، والحكومة تزيد في ضرامها بالاعمال الخرقاء ، حتى ليصح القول انها تودُّ لو ترى هذه البلاد باسرها مغطاة بحوادث القتل والحرق والنهب ، لتدعي بعد ذلك انها وحدها قادرة على قمعها . يبدو لي ان اللاعنف عندنا ناشيء عن عجـزنا ، فكأننا نضمر الرغبة في الانتقام لانفسنا متى تسنح الفرصة . فهل يرجى خروج اللاعنف الاختياري من هذا اللاعنف الاضطراري الذي في ضعاف عاجزين ؟ أليس ما احاوله تجربة باطلة ؟ وبعدُ فاذا لم يسلم، حين ينفجر الغيظ ، رجل واحد ، واذا بسطت بالاذية كل يد ، فما يجدي اذاً بعد هذه الكارثة صومي

ولو مت جوعاً ؟ اذا كنتم غير قادرين على اللاعنف ، فاختاروا العنف صراحاً ولكن من غير رياء.(١) . ان الاغلبية تزعم انها راضية باللاعنف.. فلتعرف اذاً مسئوليتها ! يجب عليها اليوم ان تؤجل العصيان المدني وان تقوم بعمل انشائي اولاً .. وإلا غرقنا في خضم لا يُدرك غوره ولو وهماً .. »

والتفت نحو الاقلية قائلا :

« انكم لا ترضون اللاعنف . فاخرجوا اذاً من المؤتمر . ألفوا حزباً جديداً . انشروا على الملأ مذهبكم . وللامة الخيار بيننا وبينكم ... ولكن لا لبس ولا إبهام . كونوا صرحاء ! »

في هذه الكلم الشديدة حزن مر ، لكن فيها حزماً ورجولة. هي ليلة جبل الزيتون ، اذ عما قريب يُلق القبض على غاندي .. ومن يدري ، فلعله كان في اقصى ضميره يرجو ذلك كأنما فيه نجاته ..

كان ينتظر هذا الحادث من زمن طويل . وقد احتاط له منذ ١٠ نوفمبر ١٩٢٠ . فاملى ارشاداته الى الأمة يوم لاتجده الامة في مقالة « اذا حبست ». واعاد الكرة في مقالة اخرى (٩ مارس ١٩٢٢) لما لهج الناس بنبأ القبض عليه . يقول انه لايخشى عنف الحكومة . لا يخشى سوى امر واحد : عنف الشعب ، فان هذا

(١ اتضح لغاندي ان جزء من اغلبيته التي تؤيد اللاعنف كان يراه وسيلة او خدعة سياسية تغطي التأهب للغلبة بالعنف . ويقول غاندي ان هؤلاء يحدثون بكلمات « محلأة » عن « القيام بضربات غير عنيفة » . لقد فطن غاندي الى الخطر الجسيم الذي اعرفه تاغور من زمن طويل ، وكاد يتميز غيظا . فهو الان يشهره ويعتهم اصحابه بأشد مما فعل تاغور .

يشينه هو . « ليكن يوم حبسي يوم عيد وفرح للشعب ! تحسب الحكومة انها متى تسجن غاندي ينقض امرها مع الهند . أثبتوا لها عكس ذلك . . ولتزن قوة الشعب . » ان اعظم تكريم يكرم الشعب به غاندي هو ان يظلّ محافظاً على السكينة التامة. ان غاندي ليبتئس اذا رأى الحكومة تحجم عن القبض عليه حذراً من ثورة دامية . اذاً على الشعب ان يظل ساكناً ، وان لا يقف سير اعماله ، وان لا يتجمهر ولا يعقد اجتماعات قط ! ولكن لتقفل المحاكم ، ولتهجر دواوين الحكومة ، ولينفذ برنامج اللامعاونة بتمامه ، في هدوء وانتظام . فاذا سلكت الامة هذه السبيل نُصرتْ ، وإلا سُحقتْ .

وبعد ان اخذ غاندي عدته انتقل الى عزلته العزيزة في اشرم سبار ماتي (على مقربة من احمداباد) ليعتكف بين صحابته الاحباء وانتظر قدوم الذين سيلقون القبض عليه . وكانت نفسه تتوق الى السجن ، لعلّ ايمان الهند يتجلى في غيبته بأوضح مما تجلى في حضرته . « وهو واجد ثمة راحة قد يكون حقيقاً بها [1] . . »

وفي مساء ١٠ مارس ، قبيل وقت الصلاة ، وصل رجال الشرطة . وكان الاشرم قد نبيء بقدومهم . فأسلم المهاتما نفسه . وفي الطريق التقى بصديقه المسلم مولانا حسرت مهني الذي جاء من مكان بعيد ليسعده الحظ بمعانقته . واقتيد غاندي ومعه

---

(١) ٩ مارس ١٩٢٢

بانكر ناشر جريدة « الهند الجديدة » . وأذن لامرأته ان تصحبه حتى عتبة السجن .

وظهرَ يوم السبت في ١٨ مارس افتُتحت « القضية الكبرى[1] » امام قاضي مقاطعة احمداباد . فكانت المحاكمة شريفة جداً : لقد تبارى القاضي والمتهم في مضمار الادب والكياسة وكرم النفس . ولم تصعد انكلترة خلال ذلك الجهاد الى اسمى من هذا الانصاف . فان القاضي س . ف . برومسفيلد كفَّر يومئذ عن كثير من خطايا الحكومة . ان صحف اروبة نقلت طرفاً من وصف المحاكمة الذي نشره اصدقاء غاندي ، وبلغت فرنسة اصداءٌ منه . لهذا نكتفي بذكر خلاصته .

لماذا عمدت الحكومة الى القبض على غاندي ؟ علامَ ، بعد ان ترددت عامين ، اختارت لاصدار امرها حينَ غلّ غاندي ثورة شعبه واثبت انه الحائل الوحيد دون استعماله الشدة ؟ هل اضاعت رشدها ؟ ام هل شاءت ان تُحق كلمة غاندي الرهيبة : « يظهر ان الحكومة تود ان ترى هذه البلاد مغطاة بحوادث القتل والحريق والنهب لتكون لها ذريعة الى قمعها . » والحق انها كانت في موقف ضنك : كانت تجل غاندي وتخشاه على السواء . وكانت ترغب في رعاية جانبه . لكن غاندي لم يرعَ جانبها قط .

---

(١) التجربة العظمى — جريدة الهند الجديدة في ٢٣ مارس ١٩٢٢

ان المهاتما يستنكر العنف ، ولكن لاعنف اقرب الى معنى الثورة من « لا عنفه » . ولقد نشر ايام كان يعارض في العصيان المدني جماعة ، عشية مؤتمر دلهي في ٢٣ فبراير ، احدى مقالاته الابلغ توعداً للسلطة البريطانية . يومئذ صفعت الهند ببرقية وقحة من اللورد بركنهيد والمستر مونتاغو (١) فهب غاندي ، وقد احفظته الاهانة ، يقابل ذلك التحدي بمثله :

« لا صلح مع الامبراطورية ما زال الاسد البريطاني يحرك عند وجوهنا براثنه الدامية ! . ان الامبراطورية البريطانية القائمة على استغلال منظم لشعوب الارض الضعيفة مادةً ، وعلى استطالة ظاهرة بالقوة البهيمية ، لا يمكن ان تدوم اذا كان هناك آلهٌ عادل مسيطر على الوجود . لقد آن للشعب البريطاني ان يفهم ان الجهاد الذي بدأ منذ سنة ١٩٢٠ هو جهاد الى النهاية سواء استمر شهراً ام عاماً ام شهوراً ام اعواماً . . اسأل الله ان يهب الهند من الضعة والقوة ما تستطيع به ان تجاهد الى النهاية من غير ما عنف . ولكن الصبر على هذه التحديات الوقاح أمرٌ مستحيل . . »

على هذه المقالة ومقالتين احدث منها (٢) بُني الاتهام . اتهم

---

(١) « اذا اصبح كيان امبراطوريتنا معرضاً للخطر ، واذا أريدَ منع الحكومة البريطانية عن القيام بواجباتها في الهند ، واذا خيل اليهم اننا نفكر بالخروج من الهند ، فان الهند اذاً تتحدى – وعبثاً تتحدى – اقوى امم الارض عزيمة ، وسنردّ هذا التحدي بما يقتضي من الشدة . »

(٢) في ١٩ سبتمبر و ١٥ دسمبر ١٩٢١ . موضوع المقالة الاولى التهمة الموجهة الى الاخوين علي ، والمقالة الثانية كتبت جواباً على خطبة مغيظة القاها اللورد ريدنغ وفيها اعلان « الحرب الى النهاية » . – « نريد ان نقلب

غاندي بانه « حض على مقاطعة وكره وازدراء حكومة صاحب الجلالة ، الحكومة التي اقرتها القوانين . » ولم يكن له محام ، فرافع مسلماً بكل ما اتهم به .

وادعى نائب بمباي العام السرج . ت سترنجمان ان المقالات الثلاث التي بني عليها الاتهام ليست فريدة في بابها ، بل هي شطر من حملة على الحكومة مستمرة منذ عامين ، واثبت ذلك بالشواهد . انه مصدق بمزايا غاندي السامية ، لكن الضرر الناشيء عن تلك المقالات هو لهذا اعظم . وعزا الى غاندي حوادث بمباي وشوري شورا الدامية . لا ريب ان غاندي كان يدعو الى اللاعنف ، لكنه كذلك كان يغري بكره الحكومة . فهو مسئول اذاً عما اتاه العامة من اعمال العنف .

استأذن غاندي بالكلام . ان مخاوفه وقلق نفسه في الاسابيع الاخيرة وشكوكه في اصالة القرارات التي اضطر أن يصدرها وفي آثار هذه القرارات في وجدان امته ، قد تلاشت جميعاً . عادت الطمأنينة الى نفسه . فهو راض بكل ما حدث وبكل ما قد يحدث ، كأنها ضرورة يأسف لها ولكن يجب عليه ان يحملها . وصرح انه والنائب العام علي وفاق . اجل ، انه مسؤول . هو مسؤول تماماً . لقد نفر من الحكومة منذ زمن ابعد مما ذكر

الحكومة وان نكرهها على الخضوع لارادة الامة . نحن لا نسأل رحمة ولا رجاء لنا في ذلك . . »

في بيان النيابة العامة . هذا هوىً في نفسه شديد . وهو حقيق بأن يُلام من اجل « جرائم مدراس الابليسية » و« تعديات بمباي الجنونية » .

« يحق للنائب العام ان يقول انه كان يجب عليّ، بصفتي رجلاً مسؤولاً أوتي حظاً كبيراً من العلم والتربية ونال شطراً عظيماً من تجارب هذه الدنيا ، ان اعرف نتائج اعمالي . فانا كنت عالماً اني كنت العب بالنار ، وقد اقدمت على ذلك الخطر . واذا اطلق اليوم سبيلي عدت الى مثله . في هذه الليالي فكرت ملياً في الامر ، وشعرت في هذا الصباح باني اخلّ بواجبي اذا لم اقل ما اقوله الآن . اني عملت ولا ازال عاملاً على اجتناب العنف . ان اللاعنف هو في عقيدتي اول وآخر بند . ولكن كنت بين خطتين لا ثالث لهما : إما ان اخضع لنظام سياسي ارى انه نال بلادي بشرٍ لا يعوَّض ، واما ان اقتحم خطر ثوران العاصفة، عاصفة الغضب الجنوني من ناحية امتي ، اذا علمت الامة الحقيقة من شفتيّ . اعلم ان امتي تصاب بمسٍ من الجنون احياناً ، وهو مما يسوء ني في سويداء قلبي ، ولهذا انا الآن هنا ، راضٍ لا بعقوبة خفيفة بل باثقل العقوبات . لست سائلاً رحمة ولا مدعياً احد الاسباب المخففة . انا هنا لاطلب راضياً مسروراً ، اشد عقوبة يحكم بها على ما يعتبره القانون جرماً متعمداً وما اعتبره انا رأس واجبات الوطني . ايها القضاة ، لا خيار : اعتزلوا او عاقبوني ! . . »

وبعد هذه الخطبة المرتجلة العصماء التي تعادلت فيها ، على هذه الصورة الجليلة ، وساوس الوجدان الديني وعزيمة الزعيم السياسي البطل ، تلا غاندي تصريحاً مخطوطاً وجّهه الى الرأي العام في الهند وانكلترة . يقول فيه ان من واجبه ان يعلمهم « لماذا بعد ان كان داعياً الى التعاون ، موالياً للحكم البريطاني » اصبح

« كارهاً له ، حاضاً بقوة على اللامعاونة ». واتى على وصف حياته السياسية منذ ١٨٩٣ ذاكراً ما آلم نفسه بصفته هندياً من مساوي النظام البريطاني وما بذله من جهود ، خلال خمس وعشرين سنة ، لاصلاح ذلك النظام ، متوهماً ، مصراً على توهمه ان هذا ميسور دون ان تفصل الهند عن الامبراطورية . لقد كان حتى عام ١٩١٩ رغم مالقيه من الكرب والفشل ، داعية التعاون . لكن الاهانات والخطيئات جاوزت الحد . فلم يكف الحكومة انها تركت الجناة دون قصاص ، بل انها عمدت ساخرة بشعور الهند الى اعلاء مناصبهم وزيادة رواتبهم والانعام عليهم بالجوائز السنية . لقد قطعت الحكومة بيدها العرى التي تصل بينها وبين رعاياها . وتيقن غاندي الآن ان هذه الاصلاحات التي تقترحها الحكومة هي كذلك مهلكة للهند . ان الحكومة قائمة على استغلال الشعب ، ولم يُسن القانون إلا لهذه الغاية . وانفاذ هذا القانون مسخرٌ لمصلحة المستغِلّ . وثمة نظام ارهابي بالغ في الدقة نافذ الفعل قد اذلّ الشعب وعوّده الكذب والمداجاة . الهند دمارٌ وجوع وانحطاط ، ويقول بعضهم انها لن تصبح قادرة على حكم نفسها كالدومينيون إلا بعد اجيال . ليس في الحكومات التي جارت على الهند فيما مضى حكومة اساءت اليها بقدر ما اساءت انكلترة . ان عدم مساعدة الجريمة واجب ، وقد قام غاندي بواجبه . بيد ان العنف كان الوسيلة القصوى ، فاعطى

هو شعبه السلاح الاسمى : اللاعنف .

هنا بدأ البراز الشريف بين القاضي برومسفيلد والمهاتما :

– « انك يا مستر غاندي ، اذ سلمت معي بالحوادث ، قد جعلت مهمتي أيسر . لكنّ النطق بحكم عادل هو من اصعب الامور التي عرضت لقاض من القضاة . ليس لاحد ان يجهل او يتجاهل انك عند ملايين من الناس زعيم كبير ووطني جليل . بل ان الذي يفترقون عنك سياسياً ، حتى هؤلاء يرون فيك رجلًا شريف الغاية سامي الفكر ، عاش عيشة نبيلة بل قدسية ... ولكن يجب عليّ ان احاكمك بصفتك رجلًا خاضعاً للقانون ليس إلا .. والراجح انه قلّ في الهند الذين لا يأسفون على انك جعلت الحكومة في موقف لا سبيل منه الى اخلاء سبيلك .. ولكن هكذا كان . سأبذل جهدي لموازنة ما يجب نحوك وما تقتضيه المصلحة العامة .. »

ثم سأل المتهم متأدباً عن العقوبة التي يمكن ان يحكم بها عليه . وذكّره بالحكم على طيلاق منذ اثني عشر عاماً : الحبس ستة اعوام .. « هل ترى هذا الحكم بعيداً عن الصواب ؟ .. واذا امكن فيما بعد ، بتأثير الحوادث ، انقاص المدة ، فليس اذاً اسعد مني بذلك .. »

ولم يقصر غاندي عنه في مضمار الكياسة وعلوّ النفس ، فرأى ان في إشراك اسمه باسم طيلاق شرفاً كبيراً له ، وان هذا

الحكم اخف مايستطيع قاض ان يحكم به، وانه لم يكن يرجو خلال هذه المحاكمة، اكثر مما لقيه من الاكرام وحسن الرعاية[1].

ختمت القضية. ووقع صحابة غاندي على قدميه مجهشين في البكاء. ثم ودعهم غاندي مبتسماً. واقفل باب السجن في سبارماتي عليه[2].

---

(١) ان بانكر مدير «الهند الجديدة» الذي اقتدى بغاندي في هذه المحاكمة اقتداء دينياً ووافق على كل اقواله، حكم عليه بالحبس سنة واحدة وبغرامة مالية.

(٢) اعلمت السيدة كاستوربي غاندي بهذا الحكم رجال الهند ونساءها في رسالة حصيفة تدعوهم بها الى التضافر على برنامج غاندي الانشائي في هدوء وسكينة.

لم يُترك غاندي في سجن سبرماتي حيث كانت المعاملة حسنة، فنقل الى مكان خفيٍّ ثم الى يرافادا في جوار بونا. وفي مقالة للمستر ن. س. هارديكر بعنوان «غاندي في السجن» نشرت في «صحيفة الوحدة — ١٢ مايو ١٩٢٢» تأكيد انه كان سجيناً في غرفة كغرف المجرمين العاديين بلا تمييز، وان هذا قد اثر في صحته الضعيفة. لكننا نعلم انه الآن احسن حالاً وانهم يأذنون له بأن يقرأ ويكتب.

وقد قال لي س. ف. اندريوس ان المهاتما ناعم البال في سجنه وانه سأل اصدقاءه ان لا يزوروه وان يحترموا عزلته. فهو يتزكى ويصلي الى الله موقناً ان عمله بهذا سيكون ابلغ اثراً في القضية الهندية. - ويؤكد س. ف. اندريوس ان حزب غاندي اصاب بهذا الحبس فائدة جليلة، فان الهند اصبحت تؤمن بغاندي إيماناً اقوى من قبل، ولا تزال تراه مجلىً للاله شري كرشنا الذي تقول الاساطير انه احتمل ظافراً بلاء السجن. ان غاندي

٥

منذ ذلك اليوم لم يُسمع صوت هذا الرسول الجهوري. ان جسده مسدودٌ عليه من كل صوب كأنه في قبر. ولكن ما كانت القبور لتحبس الفكر، فان روح غاندي الخفية لم تزل محيية الجسم الهندي العظيم. السلام واللاعنف واحتمال العذاب، تلك هي الرسالة الوحيدة التي أتت من السجن. وقد سُمعت الرسالة وانتقل هذا الامر من اقصى الهند الى اقصاها. لو انّ غاندي سجن قبل هذا الحين بثلاث سنين لانغمست الهند في الدم. واذ شاع في مارس ١٩٢٠ انه قبض عليه ثار الاهلون في امكنة كثيرة. لكنّ حكم احمداباد تقبلته الهند بسكينة دينية، وتقدم الى السجون آلاف من الهنود بفرح هادي. اللاعنف واحتمال العذاب.. مثال عجيب دالّ على ان تلك الكلمة الالهية قد نفذت الى صميم روح الامة.

كان السيخ، كما هو مشهور، من اشد الاقوام الهندية مراساً واكثرهم شغباً. ولقد تجندوا جماعات في الحرب الكونية. في العام المنصرم شجر بينهم خلاف ذو خطر، وكان منشأه تافهاً (في نظرنا نحن الاوروبيين). ان حركة تجديد ديني أخرجت بين

في سجنه قد حال دون الانفجار العنيف الذي كان يخشى حدوثه بأوكد مما لو كان حراً طليقاً.

ظهراني السيخ، فرقة العقاليين الذين يريدون تطهير المعابد من قوأم سيئي السمعة احتكروها ولا يرضون ان يخرجوا منها. ولأسباب قانونية اخذت الحكومة بناصرهم. اذ ذلك في اغسطس ١٩٢٢ بدأ استشهاد غورو — قا — باغ اليومي [١]. كان العقاليون اعتنقوا مذهب اللامقاومة، ونزل الف منهم في جوار المعبد واربعة آلاف في « المعبد الذهبي » بامرتسار. ففي كل يوم كان يغادر المعبد الذهبي مئة متطوع (اغلبهم في سن الجندية وكثير منهم اشتركوا في الحرب الكبرى) نذروا عدم استعمال العنف لا قولاً ولا عملاً، وان يبلغوا غورو — قا — باغ او يرجعوا محمولين مغمى عليهم. وينضم اليهم ٢٥ عقالي من الالف النازلين عند المعبد نذروا مثل ذلك النذر. وكانت الشرطة البريطانية تنتظرهم على جسر غير بعيد، بايديهم رماح محددة الاطراف. وهكذا كنت تشهد كل يوم مشهداً مروعاً، كتب اندريوس صديق تاغور والاستاذ في صانتينكتان فصلاً في وصفه [٢] لا ينساه قارئه. العقاليون بعمة سوداء مزينة باكليل من ازهار بيضاء يتقدمون نحو جماعة الشرطة ويقفون قبالتهم على مسافة متر واحد، صامتين ساكنين مصلين. فيضربهم الشرطة بالرماح ضرباً مبرحاً، فيسقطون

---

(١) غورو — قا — باغ معبد قائم على مسافة ١٠ اميال من امرتسار.

(٢) « جهاد العقالية » نشرت في صحيفة « سوارايا » بمدراس وعلى حدة في ١٢ سبتمبر ١٩٢٢.

صرعى ، ثم ينهضون اذا استطاعوا ، ويعود الشرطة الى ضربهم ، وقد يداسون بالاقدام حتى يغمى عليهم . ولم يسمع اندريوس صرخة توجع ، ولم يلحظ نظرة حنق . وحول الساحة مئة من الهنود يشهدون هذا المشهد وهم يصلون ، على وجوههم امارات الخشوع والالم وفي نفوسهم اشدّ الحزن . ويقول اندريوس انهم « كانوا يذكّرونه بظلّ الصليب » . وكان الانكليز الذين يصفون هذا المشهد في صحفهم [1] يظهرون العجب ولا يدركون له معنى ، لكنهم كانوا يسلمون مكرهين بان التضحية الجنونية نصرٌ مبين يصيبه جيش اللامعاونة ، وبأن الشعب البنجابي مسحور مأخوذ بها . اما اندريوس الكريم النفس الذي هداه كماله الروحاني الى فهم لغز الروح الهندي ، فقد رأى هنا ما رآه غوتي في معركة ڤالمي ، أعني فاتحة عهدٍ جديد . « بطولة جديدة مستفادة من الالم اشرقت على هذه الدنيا .. حرب فكرية جديدة . . »

ويظهر ان العامة كانوا احفظ لمذهب المهاتما من الذين عُهد اليهم بقيادة الامة : مرّ ذكر المعارضة التي قامت في لجنة المؤتمر بدلهي قبل سجن الامام بعشرين يوماً . وقد ظهرت المعارضة مرة ثانية لما اجتمعت لجنة المؤتمر بلكنو في ٧ يونيو ١٩٢٢ . كان الاستياء شديداً من خطة الانتظار والانشاء البطيء التي وضعها غاندي ، وقويت الرغبة في سلوك سبيل العصيان المدني . فالفت

---

(١) المانشستر غارديان الاسبوعي في ١٣ اكتوبر ١٩٢٢

لجنة للنظر فيما اذا كان استعداد البلاد للعصيان كافياً . فطوفت اللجنة في الهند، وكان البيان الذي قدمته في فصل الخريف مُيئساً، لا لاثباته فقط انّ العصيان من المستحيلات في الزمن الحاضر، بل لأن نصف اعضاء اللجنة (وكلهم ثقات صادقو الايمان) اقترحوا ان يُعدَل عن اساليب اللامعاونة الغاندية وعن مقاطعة الاعمال السياسية ، وان يؤلف حزب سواراج (الحكم الذاتي) وسط مجالس الحكومة ، وبكلمة وجيزة أن تصبح اللامعاونة معارضة برلمانية بالفعل . وهكذا كان مذهب غاندي يُهدم من اساسه، يهدمه دعاة العنف من ناحية والمعتدلون من ناحية اخرى.

لكنّ الهند احتجت على ذلك ، وعاد المؤتمر الوطني الهندي المنعقد بغايا في آخر دسمبر ١٩٢٢ الى توكيد تعلقه الشديد بالامام المضطهد وايمانه الصحيح بمذهب اللامعاونة . فردّ بـ ١٧٤٠ صوتاً ضد ٨٩٠ اقتراح الاشتراك بالمجالس التشريعية [1] . وفي النهاية اجمعت الاراء على دوام الاضراب السياسي بتبديل طفيف في الاساليب المعمول بها ، لكن المؤتمر ردّ اقتراحاً بمقاطعة السلع الانكليزية خشية ان ينشأ عن ذلك خصومة طوائف العمال الاروبية للقضية الهندية . وكان مؤتمر الخلافة الاسلامي اجراء كعادته ، فقرر المقاطعة باغلبية عظيمة .

---

(١) اما العناصر الثورية الداعية الى العنف فقد كانت قليلة في مؤتمر غايا ، لذلك كانت ضعيفة الاثر .

يجب ان نقف في هذا الموضع من تاريخ حركة غاندي العظيمة . ان هذه الحركة، رغم بعض العثرات التي لا مناص منها في غياب الامام وخيرة اعوانه (لا سيما الاخوين عليّ) الذين سجنوا ايضاً، قد اجتازت السنة الاولى من حياتها بلا دليل، منصورة موفقة . وان الخيبة التي عرفتها الصحف الانكليزية بعد مؤتمر غايا لدليل واضح على ذلك الفوز المبين [1] .

---

(١) في مقالة لبلانش وطسن (صحيفة الوحدة في ١٦ نوفمبر ١٩٢٢) تعداد الفوائد التي جنتها الهند من جهادها بالمقاومة من غير عنف » . وتثبت هذه الكاتبة ان ايراد الهند الداخلي نقص نحو ٧٥ مليون دولار وان انكلترة خسرت بمقاطعة النسيج الانكليزي في سنة واحدة ٢٠ مليون دولار . وتذكر ان الهنود السجناء يومئذ يبلغون ٣٠ الف سجين . وتظهر ان نظام الحكومة الاداري قد اختلّ بتمامه . لكن بلانش وطسن معجبة اعجاباً قصياً بالغاندية، فهي اذاً تبالغ دون ريب في وصف نجاحها . وثمة شهادات اخرى لا تعرب عن هذا القدر من الارتياح، لان حركة التضحية تصطدم باثرة طوائف التجار وذوي اليسار، ولان كثيراً من الموظفين الذين قدموا استقالتهم في الحماسة الاولى استردوها فيما بعد . وليس من العقل ان نتصور عكس ذلك، ففي كل ثورة يظل كثيرون في المؤخرة او ينكصون على اعقابهم . والمسألة هي هذه : هل يستمر التيار في الطبقات الدنيا ام لا ؟ اليكم شهادة لا ريب في خطورتها وانصافها :

ان «المانشستر غارديان» المشهورة باستقلال الرأي وبعد النظر والتي تمثل ايضاً المصالح الكبرى المهددة مباشرةً بأخطار اللامعاونة الغاندية عهدت الى بعض ثقاتها بالتحقيق في المسألة الهندية . فطاف في القطر الهندي ونشر سلسلة مقالات يشعر قارئها بتزايد قلق الانكليز وحراجة موقفهم، رغم ما يظهره

ماذا يكون في المستقبل ؟ هل تَظهر انكلترة ، بعد ان علّمتها الخطيئات السالفة ، أمهرَ في ارضاء الامة الهندية ، ام يصاب ثبات هذه الامة بالكلال ؟ إنّ الشعوب ضعيفة الذاكرة ولو لم تكن دروس المهاتما منقوشة في سويداء الوجدان القومي من عهدٍ بعيد ، لشككت كثيراً في حفظ الهنود هذه الدروس

الكاتب من كره الحركة الغاندية (وهذا امر طبيعي) ومن الرغبة في بخسها حقها . واني ملخّص المقالة الاخيرة المنشورة في ١٦ فبراير ١٩٢٣ (المانشستر غارديان الاسبوعي) . يريد الكاتب إيهام نفسه ان خطة غاندي قد أُصيبت بخسران مبين وان لا مناص للأمعاونة من انتهاج خطط مستحدثة . ثم يستدرك قائلاً : « لكنّ روح اللامعاونة ما زال . انك تجد في كل مكان سوء الظن بالحكومة الاجنبية والرغبة الشديدة في التخلص منها . إنّ الطبقات النيرة وابناء الحواضر قد أُشربوا هذا الروح . وانفعال الفلاح به سطحي ، لكن احوال القرى تُنبي بأنه سيستحكم فيها ايضاً عما قريب . يظهر ان الجيش لا يزال سلبياً ، لكن جنوده يؤخذون من القرى ، وسيتبع الحركة إن لم يكن اليوم فغداً . ويظهر أنّ روح اللامعاونة هو أقوى ما يكون ، عند خيار الهنود ، أي المعتدلين منهم . فان هؤلاء ينفرون من الاساليب الثورية فقط ، والعامة لا يشاطرونهم هذه النفرة . وقلوب الناس اقرب الى جرأة دعاة اللامعاونة منها الى حكمة المعتدلين وأناتهم . » ويقدّر الصحافي الانكليزي بعشر سنين الوقت اللازم لتنظيم الفلاحين الهنود كي يتوصلوا الى العصيان المدني وعدم اداء الضرائب . لكن الحالة ستزداد سوءً خلال هذه المدة . وقد اصبح الآن من المستحيل إخافة الهنود بالسجن ، فهم لا يعرفون هذا الخوف . سنضطر الى التذرع بذرائع قاهرة أعنف ، ومن شأن الشدة ان تزيد الاحقاد . « الحلّ السلمي الممكن الوحيد — إن يكن ثمة

زمناً طويلاً . ذلك ان النابغة مهما تكن عظمته ، سواء أكان والذين يحيطون به على وفاق ام لم يكن ، فليس بقادر على ان يعمل او يُحدث اثراً إلا اذا كان ملبياً غرائز امته وحاجات عصره ورجاء العالم .

حلّ لهذه المشكلة » — هو ان تقدم انكلترة من تلقاء نفسها على الاصلاح الهندي وان تكون السابقة في مضماره . لا أنصاف اصلاحات كتلك التي قررتها عام ١٩١٩ وحاولت انفاذها منذ اقل من سنة . فهذه ليست بكافية والوقت ضيق . على انكلترة ان تجمع مجلساً وطنياً هندياً يمثل مصالح الهند ومذاهبها واراءها جميعاً : من غاندي ومريديه الى امراء الهند ، واصحاب الاموال الاروبيين ، والمسلمين والهندوسيين والبارسيين والاوراسيين والنصارى والطوائف النجسة .. وعلى هذا المجلس ان يسن دستوراً اساسياً للهند المستقلة ضمن الامبراطورية ، وان يعيّن مراحل تطبيق هذا الاستقلال الداخلي . بهذا وبهذا وحده نستطيع ان نحول دون تمزيق الامبراطورية شر ممزق .

لا ادري كيف تتقبل حكومة الهند والدواوين الانكليزية مثل هذا الأقتراح الذي تؤيده المانشستر غاريان بقوة بعد ان ادلى به مراسلها . ومن العسير عليّ ان اصدّق بان غاندي ودعاة اللامعاونة يرضون ان يشتركوا ومموّلي اروبة والهند في مجلس واحد . لكن الثابت هو ان « الاستقلال الداخلي » لم يعد موضوع جدل في الهند ، لأنه امر محتوم لا بدّ منـــه ، في صورة من الصور . وليس ادعى للانتباه من تبدل لهجة انكلترة ، بعد مساعي غاندي ، في كلامها على الهند . ولم يبق من اثر لاحتقار الاروبيين الهنود ، بل هم يتحدثون عنهم برعاية ظاهرة ، ويجمعون على استنكار التدابير العنيفة الخرقاء التي كانت الذريعة القصوى تتذرع بها السلطة ، واحياناً أولى ذرائعها . لقد فازت الهند ، إن لم يكن مادة فمعنى .

وهكذا مهاتما غاندي . ان مبدء الاهمسا (اللاعنف) الذي جاء به ، منقوش في صدر الهند منذ الني سنة : لقد جعله مهافيرا وبوذا وعبادة فشنو غذاء الملايين من النفوس . وقصارى غاندي انه ادخل فيه دمه ، دمَ بطلٍ من الابطال . فهو يستوحي تلك الاخيلة العظمى : قوى الماضي الخامدة ، الدفينة في سباتٍ مميت . وقد ايقظها صوته ، فقامت لانها رأت فيه صورتها . وليس غاندي قولاً فحسب ، بل هو عمل وقدوة . لقد تجسدته الآلهة والقوى . ما اسعد الرجل الذي هو شعب ، شعبهُ الملحود يُبعث فيه .

بيد ان امثال هذا البعث لا تَحصل اتفاقاً . واذا نحن شهدنا روح الهند يثب من معابدها وغاباتها ، فلأنه جاء العالم بالجواب المقدّر الذي ينتظره العالم .

وفعلًا ان الجواب يجاوز حدود الهند بلا نهاية . والهند وحدها قادرة على ان تأتينا به . لكنه يثبت على السواء عظمتها وتضحيتها ، ومن الممكن ان يكون صليبها .

ويظهر انه لا مناص ، كيما يبعث العالم ويتجدّد ، من ان تضحي امة بذاتها . فقد ضُحّي اليهود لمسيحهم الذي حملوه وغذّته آمالهم قروناً ، حتى اذا ازهر على الصليب الدامي في النهاية انكروه . لكن الهنود اسعد منهم حظاً ، لانهم عرفوا مسيحهم ، فهم يمشون الى التضحية التي يرون فيها نجاتهم جذلين مستبشرين .

بيد ان الهنود ، كالنصارى الاولين ، لا يدركون جميعاً

معنى هذه الحرية الحقيقي . فان اماني طائفة كبيرة منهم لاتتعدى حد السواراج في الهند . ورأيي انهم سيبلغون هذه الغاية السياسية عاجلاً . فقد استنزفت الحروب والثورات دم اروبة، وافقرتها وانهكت قواها، وعرتها من أبهتها الاولى في نظر آسية المضطهدة، فلن تستطيع اذاً ان تقاوم طويلاً امم الاسلام والهند والصين واليابان التي ايقظتها الحادثات .

والامر ايسر من ذلك لو لم يكن فيه الا ان بضع امم ستزاد على الامم المستقلة، مهما يكن من شأن الانغام الجديدة التي قد تضيفها تلك الامم الى السمفونيا الانسانية — الامر أيسر لو لم تكن هذه القوى الاسيوية حاملة باعثاً جديداً على الحياة وعلى الموت، وكذلك (وهذا اجل خطراً) على العمل للانسانية جمعاء، وبعبارة اخرى لو لم تكن حاملة لاروبة المنهوكة عنصراً جديداً، عنصر قوة وحياة .

لقد عصفت بالعالم عاصفة العنف . وليس في هذه السموم التي تهب على حصاد مدنيتنا فتحرقه ما هو غير منتظر . فان عصوراً من الصلف القومي الفظ، المغرى بنظريات الثورة الفرنسية، والمضخم والمذاع بتقليد الديمقراطيات الاعمى، تلك العصور المتوجة بعصر صناعي لا اثر للرحمة الانسانية فيه يسيطر عليه مولون جشاع، ومكينية مذلة مستعبدة، ومادية تموت فيها الروح خنقاً، ستؤدي تلك العصور حتماً الى الاختباطات

العشواء التي تضيع فيها نفائس الغرب وأعلاقه. ليس بحسبنا ان نقول ان ثمة وجوباً، فلا بدّ من القول ان ثمة قدراً لا محيص عنه. فكل امة تذبح اختها باسم مبادئ. واحدة تستر مصالح وغرائز قابليَّةً واحدة. كلهم — غلاة القومية والفاشيّون والبلاشفة والشعوب والطبقات المضطهِدة والشعوب والطبقات المضطهَدة — كلٌّ يدعي لنفسه حق العنف الذي يبدو له انه الحق المطلق، وينكره على سائر الناس. منذ نصف قرن كانت القوة تغلب الحق. اما اليوم فان الخطب اعظم: اصبحت القوة هي الحق. لقد افترسته.

في هذا العالم القديم المتداعي، لا ملجأ ولا رجاء. ليس فيه نورٌ ساطع. ان الكنيسة تسدي نصائح اخلاقية مسكّنة موزونة، خشية ان يقوم بينها وبين ارباب الحول والطول خصام، ثم هي تنصح فقط ولا تجعل نفسها قدوة. وثمة ايضاً دعاة الى السلام غامضون يشفون ثغاءهم بضعفٍ وفتور، وانك لتحسُّ انهم مترددون. فهم يحدثون عن عقيدة ليسوا على يقين من انها في صدورهم. فمن يثبت لهم صحة هذه العقيدة؟ وكيف تثبت لهم في هذا العالم الذي يجحدها؟ كما تثبت كلُّ عقيدة: بفعلها.

تلك هي «الرسالة الى العالم» كما يسميها غاندي، رسالةُ الهند: «لنُضحِّ انفسنا!»

ولقد اعاد تاغور هذا القول في كلامٍ ساحر، لأن تاغور

وغاندي واحد في هذا المبدء العليّ[(١)] :

« .. ارجو ان ينمو هـذا الروح ، روح التضحية والصبر على العذاب والرضاء بالالم .. تلك هي الحرية الحقة .. لا شيء اغلى منه قيمة ، حتى ولا الاستقلال الوطني .. ان للغرب إيماناً راسخاً بالقوة المادية وبالغنى المادي . فعبثاً يصرخ داعياً الى السلام ونزع السلاح ! . إنّ زمجرة وحشيته تعلو على ذلك الصوت . ان مثله مثل سمكة تجرحها وطأة الماء فهي تحاول ان تطير في الجوّ . فكرٌ حسنٌ ! لكنه يستحيل على السمكة ان تطير . علينا نحن الهنود ان نثبت للعالم هذه الحقيقة التي لا تقتصر على جعل نزع السلاح من الممكنات بل تحوّله الى قوة . سيبرهن هذا الشعب الاعزل ان للقوة المعنوية سلطاناً اكبر من القوة البهيمية . ويدلّ تطور الحياة انها طارحةٌ عنها تدريجاً عبء سلاحها الباهظ وذلك القدر العظيم من اللحم لتبلغ اليوم الذي يصبح الانسان فيه ملك هذا العالم البهيمي . سيأتي يوم يبرهن فيه الانسان الضعيف ، ذو القلب ، وقد القى عنه سلاحه باجمعه ، ان الحلماء الودعاء هم وارثو الارض . من المعقول اذاً ان يستنجد غاندي الضعيف البنية ، المحروم من كل الوسائل المادية ، بما للضعاف الوادعين من سلطانٍ كبيرٍ كامنٍ في قلب ابناء الهند التي أهينت وانزلت عن عرشها . ان الاقدار في الهند اختارت «النارايانا» لشدّ ازرها لا « النارايانا سنا » — قوة الروح لا قوة الساعد . فلا مناص لها من ان ترفع التاريخ الانساني عن مستواه الوحل في الصراع المادي ، الى ذرى الجهاد الروحي . ليست غايتنا السوارج مهما خُدعنا بالعبارات التي تلقيناها عن الغرب . ان جهادنا جهادٌ روحي ، جهاد في سبيل الانسان . يجب ان نطلق الانسان من الحبائل التي نسجها حوله ، اعني من اوضاع الاثرة القومية . يجب ان نُقنع الفراشة بان الجوّ الطلق خيرٌ لها من وقاية الشرنقة ... ليس في لغتنا لفظٌ دالٌ على معنى الامة . فاذا استعرنا هـذا اللفظ من الشعوب الاخرى لم

(١) رسالة ٢ مارس ١٩٢١ نُشرت في « المجلة الحديثة » — مايس ١٩٢١

يكن صالحاً لنا ، اذ لا بدّ لنا من محالفة « النارايانا » الموجود الاسمى. ولن يجدي علينا هذا النصر شيئاً إلاّ اننا قد أعلينا كلمة الله ، وحققنا ملكوته . اذا كنا قادرين على ان نتحدى الاقوياء والاغنيا. والمدججين بالسلاح، بكشفنا للعالم عن سلطان الروح الخالد ، فان قصر المارد الذي يدعى «المادة» سيتداعى وينقضّ في الفضاء . وحينئذ يوفق الانسان الى السواراج الحقيقي . نحن صعاليك الشرق ، في اثالنا البالية ، سننعم بالحرية على الانسانية جمعاء . »

ايْ تاغور وغاندي ، يا نهري الهند ! انكما كالهندوس والغانج ، تضمّان في عناقكما الشرق والغرب — هذا فاجعة العمل البطولي وذاك حلمٌ نورانيّ عظيم ، وكلاهما فيضٌ من الله على هذا العالم المحروث بسكة العنف ، فاطرحا فيه بذاركما .

يقول غاندي : « ان غاية جهادنا صداقتنا والعالم اجمع .. لقد اشرق اللاعنف على الناس وسيظلّ مشرقاً . هو بشير السلام في العالم .. »

إن السلام في العالم لا يزال بعيداً . فلسنا من الذين تضلّهم الأوهام . لقد شهدنا في نصف قرن كثيراً من اكاذيب النوع البشري ومن دلائل جبنه وقسوته . ولكن هذا لا يمنع من ان نحبه ، لأنّ في احط الناس أثارةً من الروح الالهي .. اننا لا نجهل شيئاً من الضرورات المادية المحتومة التي ترزح باعبائها اروبة في القرن العشرين ، ولا نجهل الجبرية الباهظة في الاحوال الاقتصادية التي تمسك بخناقها ، ولا عصور الشهوات والاهواء والضلالات المتحجرة التي تحيط بنفوس رجال العصر كأنها

قشرة غليظة لا ينفذ منها الضياء . ولكننا نعرف ايضاً معجزات الروح : اني رأيت بروقه في التاريخ تشق سماوات اشدّ ظلمة من سمائنا . وانا الحيُّ ساعةً من الزمن ، اسمع في الهند طبل « سيوا » إمامِ الراقصين الذي يحجب نظرَه الضاري ، ويسيطر على خطواته ، لينجي الكون من السقوط في الهاوية [١] .. »

ان الساسة العمليين المؤمنين بالعنف (الثوريين منهم والرجعيين) يسخرون من مذهبنا هذا ، وهم اذاً يدلون على جهلهم بالحقائق البعيدة . ليسخروا ما شاءوا ! ذلك هو اعتقادي . اني اراه مسفّهاً مضطهَداً في اروبة ، ونحن في فرنسة حفنة (بل أنحن حفنة حقاً ؟) ولكن لو ظللت وحدي ، فماذا يهمني تفردي ؟ ليست ميزة الايمان ان ينكر عداء العالم له ، بل ان يراه ويسلم به وان يصارعه . وهذا خير ، لان الايمان جهاد و « لا عنفنا » هو اعظم جهاد . ليست سبيل السلام سبيل الضعف . نحن اشد عداء للضعف منا للعنف . فلا يقوم شيء بلا قوة : لا الشر ولا الخير . والشر بتمامه افضل من الخير المخصيّ . ان السلميّة البكّاءة مميتة للسلم : هو جبنٌ وضعفُ ايمان . فليخرج من بيننا الذين لا يؤمنون او الذين يخشون ! إنّ سبيل السلام تضحية النفس .

(١) شذره مقتبسة من أقدم دعاء الى « سيوا » في القصة التمثيلية « مودرا — راكشاسا » من وضع فيشاخداتا .

تلك هي قدوة غاندي الذي لا ينقصه الا الصليب . كلنا يعلم ان رومة لولا اليهود كانت تضنّ به على المسيح . والامبراطورية البريطانية ليست دون الامبراطورية الرومانية قدراً . لكنها الحماسة دبت ، وقد تحركت لها اعماق روح الشعوب الشرقية ، وهذه هزاهزها تنبسط على الارض جمعاء .

ان للظهورات الدينية الكبرى في الشرق نظاماً . احدُ امرين : اما ان يُنصر ظهور غاندي واما ان يُعاد ، كما اعيد منذ قرون بوذا والمسيح ، حتى يتجلى تجليّه الكامل في نصف إلهٍ من البشر ، مبدء الحياة الذي يقود الانسانية في مرحلتها الجديدة .

فبراير عام ١٩٢٣

انتهى

غاندي بعد اطلاق سراحه

فصل كتبه المؤلف للطبعة الحادية والثلاثين من هذا الكتاب

منذ ثلاثة اشهر ظهر هذا الكتاب في طبعته الاولى .

ومنذ ذلك اليوم شهدنا ثلاث حادثات ، زادت خطوط الصورة التي صورناها وضوحاً ، وإن لم تنلها بتبديل .

ان حزب السواراج الهندي الذي الّفه اعظم زعيم سياسي في الهند وصديق غاندي س . ر . داس — الحزب الذي يجمع بين اساليب اللاعنف وبين الاشتراك في المجالس التشريعية — قد فاز في انتخاب آخر دسمبر ١٩٢٣ فوزاً مبيناً .

ان الأخوين علي ، زعيمي مسلمي الهند بلا منازع وصديقي غاندي ، بعد ان قضيا سنتين في السجن ، قد رجعا الى مكانهما في رأس الحركة الوطنية الهندية ، واصبح احدهما وهو مولانا محمد علي ، رئيساً لمؤتمر جميع الهند .

ثالثاً واخيراً ان غاندي قد اطلق سراحه .

***

علمت اروبة ان المهاتما أطلق سراحه ، لكنها لم تعلم في أي ساعات ضنكة كان ذلك . لقد كتموها ان الحكومة الانكليزية

اوشكت ان ترى اسيرها يموت بين يديها .

كان سجيناً في يرافادا ، قرب پونا (مقاطعة بمباي) . وكان يزداد وهناً ، ونحوله بلغ الحدّ . في دسمبر قاسى اوجاعاً شديدة لم يكترثوا لها . واستولت عليه الحمى . وكانت اسرته التي لا تستطيع ان تزوره غير عالمة بشيء من ذلك .

لكن طمأنينة الحكومة اصيبت بغتةً في اول يناير بهزة : اصبح المهاتما في حال مزعجة حتى اضطروا الى التعجيل في دعوة الكولونل مادوك « طبيب مدني » الى فحصه فوجد انه مصاب بالزائدة في اشد نوباتها . ولولا حزم الجراح لقضى غاندي نحبه . فان مادوك لم ينتظر تفويض الحكومة ، بل تحمَّل تبعة نقل السجين حالاً على أتومبيله الخاص الى مستشفى ساسّون في پونا ثم اضجعه على خشبة حملها وبعض الطلاب . وفي المساء (السبت في ١٢ يناير) قام بالعملية الجراحية . ولم يعلم بذلك احد خارج المستشفى ، ولم يُنبَّأ بـه اهل المهاتما إلاَّ من بعد . لكنَّ الجزع داخل المستشفى وفي اندية الحكومة كان بالغاً الغاية . لقد كانت المسؤولية على رجال السلطة الانكليزية باهظة جداً : إن يمتْ المهاتما فان الهند باسرها تثور لا محالة .

وظل المهاتما وحده مطمئناً وديعاً . وقبل بدء العملية بساعة استدعت السلطة ، لتخفف تبعة عملها الخطر ، فيما لو ساءت المغبة وتمت ارادة الله ، ساستري احد زعماء الحزب الهندي الحرّ الذي

كان خصماً لغاندي ، لكن غاندي بجّله ، ليكون شاهداً عليها. وقد نشر ساستري وصف تلك الساعة الرهيبة [١] .

سُئل غاندي ان يوقع رقعة يصرح فيها عن رضاه بالعملية . فتناول نظارتيه وقرأ الرقعة بامعان ، ثم استأذن بتغيير نصها واملى رسالة يخاطب بها الكولونل مادوك ويشكر للاطباء ورجال الحكومة حسن عنايتهم ، مؤكداً ثقته في الجراح وطالباً اجراء العملية بلا ابطاء . ثم رفع ركبتيه واخذ قلم رصاص ، فوقع الرقعة بيد راجفة . واختلى بساستري برهة بينما كانوا يعدّون غرفة العمليات ، فتحدث المهاتما الى صاحبه بهدوء ، وهاك اقواله بنصها :

« ان خلافي مع الحكومة باقٍ وسيبقى ما بقيت الاسباب التي نشأ عنها . لا يمكن ان يكون ثمة شرط . اذا كانت الحكومة ترى ان حججي راهنة واني بريء ، واذا كانت ترى انها سجنتني كفاية ، ففي ميسورها ان تطلق سراحي ، وفي هذا العمل شرف لها . . تقدر الحكومة ان تطلق سراحي ، ولكن لا ينبغي ان يكون ذلك لعللٍ باطلة . . »

(اي انه كما سيقول صراحة لا يرضى باطلاق سراحه بحجة المرض) .

ثم قال إنه « وإن يكن الخلاف بينه وبين الحكومة في

(١) في جريدة « سوارايا » الثلثاء في ١٥ يناير .

اشده ، يحب الانكليز شخصياً » واذا كان مقدراً للشعب الهندي بعد إطلاق سراحه ان يحدث اضطراباً « وهو مالا يرجوه » فأن دعاءه الى الله ان يكون ذلك بروح اللاعنف .

فسأله ساستري هل يريد ان يبلّغ شعبه رسالةً . كان غاندي شديد الرغبة في ذلك ، سيما وقد مكموم منذ التي في السجن . لقد ارسل بعد الحكم عليه رسالة الى رئيس المؤتمر الوطني الهندي ليقرأها على ابناء قومه ، لكنّ الحكومة امسكت الرسالة وسألته تعديلها فلم يقبل . اي رجل في مثل حالته ، يعلم انه قد لا ينجو من هذه العملية الجراحية ، يعفُ عن انتهاز الفرصة ، فلا ينصّ على امته آخر مشيئاته ؟ لكن المهاتما ، بما أوتي من شرف النفس العجيب ، وهي سجية من سجاياه لا تكاد تجد لها مثيلًا في هذا الزمن ، رفض ذلك . كان يرى انه مقضيّ عليه ان يلزم الصمت . فكان جوابه لساستري انه سجين الحكومة ، فيجب عليه العمل بقانون الشرف الذي يعنو له السجين . هو في حكم الميت مدنياً ، فليس لديه رسالة يبلّغها . .

في تلك البرهة — الساعة العاشرة مساء — فُتح الباب . جاءوا ليحملوه الى طاولة الجراحة .

استمرت العملية عشرين دقيقة . وحدث حادث كادت العاقبة من جرّائه تكون مفجعة . لم يكد العليل يُنوّم بالكلوروفورم حتى انطفأ النور الكهربائي . فتمادوا لاحضار قناديل

زيت او ما اشبه . وانكشف الجرح عن قرحة خفية مصدئة عميقة جداً . فاضطروا ان يتركوا في الجرح انبوباً طوله ست اصابع لافراغ القرحة من صديدها . لقد احتمل غاندي العملية احتمالاً حسناً ، لكن القلق استمر تلك الليلة بطولها .

وفي اليوم التالي جاء ابناء غاندي الذين أنبئوا في النهاية ، ثم تبعتهم امرأته . وظلت الهند باجمعها ، بضعة ايام ، فريسة حمى الجزع . وقرر مؤتمر جميع الهند ، باشارة رئيسه محمد علي ، ان يكون ١٨ يناير يوم صلوات عامة في القطر من اقصاه الى اقصاه . وطولبت الحكومة من كل صوب وحدب ، باطلاق سراح غاندي ، حتى في صحف الحكومة : يجب الخروج باسرع ما يمكن من المأزق الحرج الذي رمت فيه حياة غاندي المهددة ، اولئك الذين لايزالون موصدين عليه باب السجن . وفي ١٧ يناير استدعي حاكم بمباي بغتة الى دلهي ، ليقابل اللورد ريدنغ نائب الملك . ان دورة المجلس التشريعي الهندي الجديد ستبدأ في نهاية الشهر ، فيجب ان تمنع الحكومة هذا الباعث من بواعث الفتنة والاضطراب . وفي ٤ فبراير صدر الامر باطلاق سراح غاندي .

الآن اذ نجا المهاتما من وساوس ضميره ، واصبح طليق الصوت كما انه حر الفكر ، فقد عجل الى كتابة رسالة الى رئيس مؤتمر جميع الهند (٧ فبراير) [1] .

---

(١) جريدة « هندو » بمدراس في ٨ فبراير .

استهل الرسالة بالاعراب عن أسفه لصنيع الحكومة الذي لا يقدر ان يرضى به اذا اعتبرته « عفواً » عنه .

« يسؤني ان الحكومة اطلقت سراحي قبل الاوان لاني مريض . ان هذا النوع من الحرية لا يسرني بوجه من الوجوه، لاني لا ارى في المرض مايحمل على اطلاق سراح السجين . »

وهو بكياسته المعهودة يشكر الذين رعوه وعنوا به ، سواء في السجن ام في المستشفى ، جميعاً (لم يغفل احداً) . ويعلن انه غير صالح لأن يعمل ، الى حين . فهو بحاجة الى الراحة بضعة اسابيع . و كذلك يعوزه ردح من الزمن ليطلع على احوال الهند الجديدة ، لانه ظلَّ بمعزل عنها في هذين العامين . لكنَّ هذا لا يمنعه من اسداء بعض النصائح الرشيدة التي تدلّ على انه لم يتغير حكم من احكامه الاولى ، ولا مادة من خطته المثلى .

يجب بادىء بدأة ان يُعاد توحيد القوى الهندية جميعاً ، لان الوحدة في غيابه قد تضعضعت .

« مهما تكن معرفتي باحوال وطني الحاضرة قليلة ، فهي كافية لاحكم بأن مشاكلنا الوطنية ادعى الى الحيرة اليوم منها في ايام باردولي . كلّ سواراج (حكم ذاتي) هو خلوٌ من المعنى اذا لم تتحد الاقوام والاديان جميعاً . ان هذا الاتحاد الذي حسبته سنة ١٩٢٢ غاية قريبة المنال قد تداعى بين الهندوس والمسلمين . اذا كنا نريد ان تستقل بلادنا فيجب علينا ان نوثق

بين الطوائف المختلفة ، عروة لا انفصام لها . لا أسألكم ان تصلّوا من اجلي وتحمدوا الله على شفائي ، فان اتحادكم يعيد اليّ الصحة باسرع مما تعيدها عناية الاطباء . لقد اغمّني ما علمته من اختلافكم ، ولا سبيل لي الى الراحة ما دام هذا العبء الباهظ يثقل كاهلي . اني موجّه وجهي شطر الذين يحبونني اجمعين ، قائلًا لهم : إتحدوا . لا ريب عندي في انه عمل عسير ، ولكن لا يعسر علينا شيء اذا كان ايماننا بالله حياً . فيا ايها الهندوس والمسلمون إطرحوا جانباً سوء الظن بعضكم ببعض . انه الضعف يولد الخوف ، والخوف يولد سوء الظن . فلنضرب نحن واياكم بمخاوفنا عرض الحائط . ولو انّ احدى فئتينا اصبحت لا تخاف الاخرى لم يكن بيننا نزاع قط . اعلم اننا في الحقيقة نحب بعضنا بعضاً كالاخوة . لا أسألكم الا ان تشاطروني جزعي ورجائي في ان نتحد . . »

اما خطته في الجهاد فلم يعرُها تبديل قط . انّ تفكيره في عزلته مدة عامين قوّى يقينه بصلاح تلك الخطة وبليغ اثرها . اولاً المغزل — الدواء الوحيد لخصاصة الهنود . اتحاد الطوائف . ابطال مبدء النجاسة . إتباع قانون اللاعنف نيةً وقولاً وفعلًا :

« اذا نحن وفّينا هذا البرنامج حقه فلن نضطر الى التذرع بالعصيان المدني . ولكن يجب ان اقول ان تدبّري الامور وتفكيري الطويل لم يضعفا ايماني بالعصيان المدني ، فهي خطة عادلة فعالة .

وأكد انه سلاح في سبيل الحق وانه واجب على الامة متى يصبح كيانها الحيوي مهدداً . ويقيني انه اخف ويلاً من الحرب لان العصيان المدني اذا انتصر عمت فوائده كلا الخصمين ، بينما الحرب تصيب بويلاتها الغالب والمغلوب على السواء . »

اما حزب « السواراج » الجديد الذي الفه صديقه س . ر . داس فان غاندي لا يبدي رأياً في برنامجه . لقد وجد نفسه ازاء حالة سياسية جديدة لا بدّ له عن درسها قبل الحكم عليها . كان السواراجيون (حزب الشمال من وطني الهنود ، يدعون الى اللاعنف ، لكنهم يعملون في دائرة الوسائل البرلمانية التي منحهم اياها الدستور المعدّل) قد ربحوا في انتخاب آخر دسمبر للمجالس التشريعية ١٠٣ كراسي في المجلس التشريعي لجميع الهند ، واصبحوا في اغلب مجالس المقاطعات اقوى حزب هندي [1] . فانتهزوا الفرصة وقدّموا في آخر دسمبر طائفة من المطالب التي قرروها : إلغاء القوانين الجائرة . تأسيس حكومة مستقلة استقلالاً داخلياً بلا ابطاء . تأليف مؤتمر لوضع مبادىء الدستور الهندي الذي يسنه

(١) ويزيد س . ف . اندريوس في مقالة نشرتها « المانشستر » الاسبوعية (اول فبراير) ان لهذا الفوز دلالة ذات شأن ، لان حزب « سواراج » لم يحصل على اذن المؤتمر الوطني بالاشتراك في الانتخابات الا قبل التصويت بايام قلائل . وظلّت طائفة كبيرة من دعاة اللامعاونة ارادت اتباع مذهب غاندي تاماً ، في معزل عن حركة الانتخاب . فلو ان جيش اللامعاونة برمته اجمع على خطة واحدة في ذلك الانتخاب لأوتي نصراً مبيناً لا غاية بعده .

فيما بعد المجلس الجديد ويجعله في الصورة القطعية . بل ان السواراجيين ذهبوا الى ابعد من هذا ، فطلبوا اتحاد الشعوب الاسيوية لتحرير آسية . لذلك لم يكن غاندي قادراً على اهمال هذه الحوادث الجديدة، سيما ان احترامه وحبه لزعماء هذه الحركة امثال س . ر . داس الذي يعرف اخلاصه وصدق ايمانه ، يقضيان بأن لا ينكر هذا الخروج على مبادئ اللامعاونة التي وضعها ، إلا بعد الروية والتحقيق . ويقول غاندي :

« لا ترجوا ان تسمعوا مني رأياً في هذه المسألة الدقيقة ، اعني انتخاب اعضاء المؤتمر للمجالس التشريعية وللمجلس الكبير . فأنا ، وإن لم يتغير رأيي في مقاطعة مجالس الحكومة ومحاكمها ومدارسها ، ليس لدي من الحقائق مايأذن لي بأبداء رأيي في هذه التبديلات الطارئة على خطتنا الوطنية . لا أريد ان ابدي رأياً قبل مناقشة مواطني الاجلاء الذين رأوا ، لمصلحة الوطن ، ان من واجبهم العدول عن مقاطعة المجالس التشريعية . »

ويختم كلامه مؤكداً ، مرة اخرى ، انه لا يحارب الانكليز بل حكومتهم وسياستها الجائرة .

وثمة رسالتان نُشرتا خلال شهر فبراير ، تشهدان ان المرض[1] غير قادر على اضعاف عزيمته وان جهود الاطباء لحمله على السكينة غير مجدية في منعه عن القيام بواجب الرياسة :

---

(١) ما زالت حياة غاندي الى يومنا هذا في خطر (اخر مارس ١٩٢٤)

في ١٦ فبراير[١] نشر غاندي تصريحاً موضوعه الحوادث الاخيرة في افريقية الجنوبية اذ اخذ برلمانها ينظر في قانون « حصر الطوائف او الفصل بينها » الذي يجعل الهنود ضمن حدود ضيقة . فاحتج غاندي على نكث العهود التي وُقّعت سنة ١٩١٤ واعاد ذكر تاريخ الحركة الهندية في افريقية الجنوبية .

وفي ٢٥ فبراير[٢] نشر رسالة الى السيخ العقاليين وكانوا قد اصطدموا بالشرطة البريطانية ، فأصلتهم ناراً حامية بأمر وال انكليزي . فجاء غاندي يحضهم على اللاعنف .

والآن ، أنأتي على وصف الحماسة الشديدة التي دبّت في الهند بعد اطلاق سراح الرئيس ؟ انذكر دعوة محمد علي اذ قضى بأن يكون العاشر من فبراير يوم صلوات عامة فيشترك الهنود جميعاً في حمد الله لمنّه بالشفاء على المهاتما ، واتحاد الطوائف والاقوام كافة في هذا الحمد الديني ، والمواكب الاسلامية الحافلة ، والاعياد التي قامت في الهند من اقصاها الى اقصاها ؟

لقد فاضت على غاندي محبة امته ، حتى كاد الاطباء لا يستطيعون وقاية عليلهم المتماثل للصحة . بل ان حرّاسه انفسهم وكثيراً من الانكليز سرت اليهم عدوى هذه المحبة ، مثل ذلك القائد المتقاعد ، البالغ من العمر ٨٢ سنة ، الذي حدّثت عنه

---

(١) جريدة « بنغالي » في كلكتا — ١٦ فبراير

(٢) جريدة « الديلي نيوز الهندية » في كلكتا — ٢٦ فبراير

صحيفة انكليزية فقالت انه يأتي الى المستشفى كل يوم، حاملاً باقة ازهار، فيدخل على المهاتما ولا يقدر على منعه احد؛ فيصافحه ثم يمضي قائلاً له: « هيّا يا شيخي! لا بأس عليك. »

وما فتيء غاندي مطمئناً، مسيطراً على ذاته، آخذاً على نفسه التحدث الى العُوّاد طويلاً. هو نحيلٌ منكمش « قد خسر نصف حجمه، فاذا رأيته لم تتمالك عيناك عن ذرف الدموع ». لكن من يسمع حديثه، بصوته الهادئ الرقيق وكياسته العاطفة، ينفعل لتلك الطمأنينة، في سويداء فؤاده. انّ من عرفه قبل سجنه، ثم رآه في فراش علته (مثل ذلك الفتى البارسي الذي قصّ عليّ، هذه الايام، كيف عاده في المستشفى) يعجب جدّ العجب لما يشهده من تغيير. كنت تحسّ ان المهاتما قبل سجنه حزين مغتمّ. اما الآن فهو من قمة رأسه الى قدميه فيضٌ من النور. « نفسٌ يحق لها القول انها والدنيا على سلام (١). »

***

(١) ديليب كومار روي. — وددت لو انقل هذا الحديث الذي دار بين صديقي الموسيقي الهندي د. ك. روي وبين غاندي في مستشفى بونا (٢ فبراير) عن الموسيقى. فانك تحسّ خلاله روح المهاتما الكبيرة المأخوذة بجمال الفن. هو يعتقد « انه لا سبيل الى تطوّر ديني في الهند الاّ بعون الموسيقى » لكنه يرى (ما رآه حكماء اليونان وغوتي في هذا العصر) ان الفن الاجلّ هو في الحياة الاجمل (بياي كرونكل في ٥ فبراير).

لا بدّ لنا من ختم هذا الفصل بينما الهند لا تزال في جهاد، عاقدين النية على تتبع الحوادث في الطبعات الجديدة من هذا الكتاب. نقف الآن عند رفض السواراجيين الهنود في المجلس التشريعي الميزانية التي عُرضت عليه، اثباتاً للمبدء الوطني وإنذاراً للحكومة بانّ عليها منذ اليوم ان تحسب لهذا الحزب حساباً. وهم ينتظرون ما ستقترحه انكلترة لحلّ القضية الهندية.

فهل تصل الاقتراحات؟ بل هل تصل قبل فوات الاوان؟ يبدو لنا ان وزارة العمال الانكليزية ليست أميل من الوزارات السابقة الى منح الهند استقلالها الداخلي. ولم يخيب تصريح رمزي ماكدونالد رجاء مؤلف هذا الكتاب (الذي اصبح لا يرجو خيراً في السياسة الاروبية) بقدر ما اورث اصدقاء الهند وانكلترة الكثار من خيبة. لا ننكر انّ المعضلة مفجعة للفريقين على السواء. فان انكلترة خربت الهند لتنتفع هي. لكنها اذا اعادت للهند استقلالها السياسي والاقتصادي، فالدمار يكون نصيب عمال مانشستر. ان غاندي من الرجال القلائل الذين يعلون فوق مصالح احد الفريقين المتنازعين، ليبحثوا عما يكون فيه الخير لكليهما على السواء. ولكن يجب ان يجد في انكلترة انداداً متحلّين بمثل شرف نفسه وسعة فكره. فهل يكون الامر كذلك؟ ندعو الله ان يهدي الامة البريطانية سواء السبيل.

وعلى كلٍ فان انكلترة لم تعد محمولةً على استصغار قوة خصمها وشأن السلاح الذي يحارب به : اللاعنف . اما رجال السياسة الاروبيين الذين قد لا يزالون لقيمة ذلك السلاح منكرين ، فليقرأوا هذه النبذ من بحث نشرته الجريدة الانكليزية الرشيدة ، غير المتهمة بانّ هواها مع الغانديين اعني « المانشستر غارديان الاسبوعي » في ١٥ فبراير :

« فكر قليلاً في قوة هذا السلاح العجيبة ، الذي يجاهدون به في السنوات الاخيرة ، على صورة السكون المطلق . لقد كان اول مظهر خطر من مظاهره في دائرة واسعة ، يوم اضرب عن الاكل النسوة المطالبات بالحقوق السياسية . وكانت « السن فين » في البدء جماعة غايتها المقاومة الانفعالية المطلقة ، فكانت تنظر الى كل ماهو انكليزيّ في ايرلندة كانه لم يكن : المحاكم ودوائر البريد وجباة الاموال الاميرية والشرطة . . وقداصبح البنجاب اليوم مختبراً كيماوياً تجرب فيه قوة هذه المادة المنفجرة العجيبة الجديدة التي لا تنفجر لكنها قادرة ان تخرج الخصم الذي يحارَب بها من ميدان القتال . من قواعد السياسة الحرة انه يجب على كل حكومة ان تقوم على رضاء المحكومين . ويبدو لنا ان اية حكومة في هذا العصر ، حتى في الهند ، عرضة للاضمحلال اذا اجمع عدد كبير من رعاياها على عدم الاتيان بحركة لمساعدتها ، بله على ان لا يتناولوا طعاماً في سجونها . كانت وزارة الداخلية قانطة لما وضعت الحرب الكونية حداً لاضراب النساء عن تناول الطعام . وحكومة البنجاب هل تعلم اليوم علم اليقين ما يجب عليها ان تصنع ؟ جرت العادة الى يومنا هذا ، ان ننظر جميعاً الى المقاومة الانفعالية الصرفة واقتصار الامة على عدم مساعدة الحكومة بشيء ، كسلاح غير فعّال في النهاية ، ازاء القوة القاهرة ، اذا اعتزمت الحكومة التذرع بها . وقد يكون لا مناص لنا ، وان لم

تتضح هذه المسألة بعد ، من إعادة النظر وتمحيص آرائنا في القوة السياسية ، ومن التسليم بأن في بعض التعاليم ، مثل « أدرْ خدَّك الايسر » اشارة الى حركة سياسية فعّالة ، وليس كما يقول « باكون » مبدء « نظامٍ اخلاقيٍ مجرّد جدير برهبان الاديرة » .

آخر مارس ١٩٢٤

دار البستاني للنشر والتوزيع
٢٩ ش الفجالة ١١٢٧١ القاهرة
ت ٥٩٠٨٠١٤ – ٥٩٣١٤٠١ ص.ب ١٤ – ١٠٠
٣.ض: ٢٤١٩١ – ٥٤١٦٦ مدينة نصر